چُون شتاينبك



تأليف : بول ماكرثى

ترجمة : مى شاهين

چُون شتاينبك

تأليف : پول ماكرلي

ترجمة : مي شاهين

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

JOHN STEINBECK

By

Paul McCarthy

الرجل ومؤلفاته

قبل منح جون شتاينبك جائزة نوبل فى الأدب فى عام ١٩٦٢، لم يكن قد حظى بهذا الشرف سوى خمسة أمريكيين فقط ، أحدثهم أرنست هيمنجواى فى عام ١٩٥٤ ، ووليم فولكنر فى عام ١٩٤٩ ، وكان قد جاء ذكر شتاينبك فى هاتين المناسبتين وفى عام ١٩٤٥ أيضا ، عندما وقع الاختيار على جبرييلا مسترال الشاعر الشيلى ·· وشعر شتاينبك بسعادة غامرة ، فقد كان نيل الجائزة أعظم شرف يمكن أن يتلقاه أى كاتب فى ذلك الحين ، الا أن السعادة فترت قليلا بالملاحظة التى أبداها شتاينبك فى عام ١٩٥٦ وهى أن من يمنحون جائزة نوبل نادرا ما يكتبون شـــيئا قيما يستحق الذكر بعد ذلك ، وذكر هيمنجواى وفولكنر على سبيل المثال مستهينا بفكرة أن معظم الكتاب يكونون قد كتبوا أفضل أعمالهم عندما يقع عليهم الاختيار ·

كان شتاينبك نفسه قد بلغ الستين فى تلك المناسبة ، وقد كتب الى صديق له وقال انه ما كان ليقبل الجائزة لو لم يعتقد أنه سوف يستمر فى الكتابة بكفاءة ويتحدى النقد · ولكنه لم يفعل هذا شأنه شأن معاصريه وآخرين أيضا · ولم يكن من المنتظـــر كما لم يكن شتاينبك فى حاجة لأن يفعل هذا ، لأنه كان قد وضع علامته المميزة فى الأدب الأمريكى منذ فترة طويلة ·

والواقع أن قصصه فى الثلاثينات نالت شهرة قوميـــة فى بلاده ، كما أن أعمــــالا مثل Of Mice and Men (١٩٣٧) و The Grapes of Wrath (١٩٣٩) حظيت بتقدير كبير فى بلاد أخرى أيضا · ولا شك أن هذه المؤلفـــات و Tortilla Flat (١٩٣٥) و In Dubious Battle, (١٩٣٦) The Long Valley (١٩٣٨) وهى مجموعة من القصص تضم "Flight" "The Red Pony" ·· كل هذه الأعمال تكشف عن علامات الجودة المميزة لمؤلفـــات

شتاينبك وهى المهارة الفنية الحساسة ، والاستيعاب الحاذق للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، والايمـــــان القوى بالجنس البشرى ، والتعاطف مع المقهورين · أما الأعمال التى كتبها بعد ذلك فيبدو فيها تدهور ملحوظ فى المستوى ، ولا يوجد بينها الا Cannery Row (١٩٤٥) فقط التى تصل الى مستويات أعماله قبل الحرب ·

على أن أعمالا أخرى مثل The Wayward Bus (١٩٤٧) و East of Eden (١٩٥٢) تعتبر شائقة فى بعض أجزائها ولكن تنقصها النظرة النفـــــاذة داخل الشخصيات ، والأفكار الأمريكية الموجودة فى القصص التى كتبها قبلها ·

أما آخر قصة لشتاينبك وهى The Winter of Our Discontent (١٩٦١) فهى تناسب زمانها وتتميز ببصيرة قوية ولكن تنقصـــــها بيئة كاليفورنيا المحلية المألوفة ، كما تكشف عن أخطاء عديدة ·

والجدير بالذكر أنه منذ وفاة شتاينبك فى عام ١٩٦٨ حصلت كتبه الأخيرة على بعض تأييد النقاد ، ولكن الأعمال الكبرى وبينها Sea of Cortez (١٩٤١) وهى ليست قصة لم تفقد شــــيئا من روعتها · والواقع أن مؤلفاته فى الثلاثينــــــات والأربعينات تمثل السمات الرائعة لعمل فكرى يغطى ثلث القرن العشرين ـ من ١٩٢٩ الى ١٩٦٦ ـ كما تمثل حياة تعتبر فى حد ذاتها شاملة متنوعة مثل القصص ·

نشأ جون شتاينبك فى كاليفورنيا حيث كان أجداده من جانبى والديه قد استقروا فى منتصف الـ ١٨٠٠ وفى عام ١٨٥٠ كانت جدته أليرا آن دكسون من نيو انجلاند تقوم برحلة فى ألمانيا ، عندما وقعت فى غرام شاب يعمل فى صناعة الأثاث يدعى جون أدولف

جروشتاينبك ، وعقدا قرانهما فى الأرض المقدسة "Holy Land" .
وقبيل الحرب الأهلية حضرا الى أمريكا وأقاما فى نيوجرسى ثم فى
فلوريدا حيث ولد جون أرنست والد شتاينبك ، وبعد أن عمل الجد
فترة قصيرة مع الجيش الاتحـــــادى عاد فى صحبة أسرته الى
نيو انجلاند ولعله هو الذى ابتكر عندئذ صيغ الرحلات المذكورة فى
To a God Unhnown (١٩٣٣) و East of Eden (١٩٥٢) فقد
سافر الى كاليفورنيا فى عام ١٨٧٤ حيث استقر قريبا من هوليستر
ولحقت به أسرته بعد قليل · كان الجد يدير لحسابه طاحونة دقيق،
وقد نال هو وبقية أفراد أسرته سمعة طيبة فى الأمانة ومهـــــارة
الصنعة · وفى عام ١٨٩٠ انتقل أرنست شتاينبك الى كنج سيتى وكان
رجلا طويل البنية وهناك عمل فى مسك الدفاتر وفى عام ١٨٩٢
تزوج مدرسة شابة تدعى أوليف هاملتون ·

كان والدا أوليف هاملتون الايرلندیان قد غادرا ايرلندا فى
عام ١٩٥١ وظهرا فى وسط كاليفورنيا بعد قليل ·

والواقع أن أماكن اقامة الأسرة فى أول الأمر لا تزال مجهولة ،
ولكن المعروف أن أوليف ولدت فى سان جوزى عام ١٨٦٦ وبعد ذلك
استقرت أسرة هاملتون فى مزرعة واسعة تبلغ مساحتها ١٧٥٠
فدانا شرق كنج سيتى ، ولعلها قد ابتكرت بذلك فكرة أنشطة الأسرة
التى ورد ذكرها فى East of Eden · فاذا صح الاعتمـــاد على
أحداث القصة تكون الأسرة قد مرت بفترة عصيبة تزرع الحبوب
وترعى الماشية على هذه الأرض التى لم تكن فيها مياه وفيرة ،
وكانت مياه آبارها غالبا ما تجف فى حرارة الصيف · ولكن الأب
الكادح المجد استطاع أن يتغلب على تحديات وعيوب الأرض ، كما
أن والدة أوليف وكانت امرأة صارمة عملية استطاعت أن تعرس فى

نفوس أفراد الأسرة المتزايدة المترابطة احتراما لله والانجيلوالحقائق ٠

وعندما بلغت أوليف وهى الطفلة الرابعة للأسرة السابعة عشرة من عمرها بدأت التدريس فى مدارس صغيرة مكونة من غرفة واحدة فى المناطق الساحلية الوعرة لـ Big Sur أسفل سان فرانسسكو ، ولا يمكن للوصول اليها الا على ظهور الجياد ٠ وبعد زواجها هى والابنة الثانية استقرت الأسرة بصورة دائمة فى ساليناس عام ١٨٩٤ حيث وجد جون أرنست عملا فى طاحونة الدقيق فى سبيرى ٠

وفى بداية القرن العشرين كانت ساليناس نموذجا من المدن الأمريكية الصغيرة لا تختلف عن مسقط رأس فولكنر فى المسيسيبى ومسقط رأس هيمنجواى فى الينوى الا فى الموقع وبعض الملامح المميزة القليلة ٠٠ وفى عام ١٩٠٠ أصبحت ساليناس التى تقع على مسافة مائة ميل جنوب سان فرانسسكو قريبا من خليج مونتيرى تزهو بعدد كبير من السكان وصل الى ثلاثة آلاف نسمة وكان للمدينة شارعها الرئيسى وأسواقها وهى منطقة عمل تضم مطاعم وفنادق قليلة واصطبلات خيل فى داشاواى فى ساوث مين وطاحونة دقيق سيبرى فى شارع كاستروفيل ٠

فى تلك السنوات كانت شوارع المدينة تدوى بأصوات العربات التى تجرها الجياد ، وأول سيارات صغيرة تسير بالبنزين ، وكانت تخترق المدينة مستنقعات ضيقة يمكن عبورها قفزا أو فوق جسور صغيرة ٠ وفى أشهر الصيف والربيع كانت الضفادع فى المستنقعات تضيف نقيقها الى بقية الأصوات ٠

وفى شمال حى العمل وعبر قضبان السكك الحديدية فى جنوب

الباسيفيك كانت هناك ملامح مميزة استثناء منها سكان ساليناس المتزمتون ومنها المدينة الصينية تشيناتاون فى شارع سولداد ، وبيوت الدعارة فى شارع كاليفورنيا ، وكما ورد فى قصة East of Eden كان شتاينبك يتسكع فى صباه على الأرصفة هناك أو يتطلع الى الواجهات الخالية من أى زخرفة للمنازل والمبانى الصغيرة ، رغم أنه لم يكن يسمح لمن فى سنه من الصبية بدخول المنطقة ، وكان المنتظر منه أن يقضى كل وقته فى الحى الذى يقيم فيه ، أو فى الأحياء المحترمة المجاورة ، وأن يحضر أيضا القداس الذى يقام فى الكنيسة الأسقفية كل يوم أحد ، وفى المدارس القريبة لمن فى الفصول الأصغر ٠

كان المنزل الذى ولد فيه جون شتاينبك فى ٢٧ فبراير ١٩٠٢ مبنى كبيرا على الطراز الفكتورى ، بمثلثاته وزخرفته المألوفة فى ذلك العهد ٠ والواقع أن الأسرة احتاجت الى بيت فسيح بعد ولادة ابنة ـ وكانت الرابعة للأسرة ـ وذلك بعد سنوات قليلة من مولد جون ، وقد أقامت الأسرة فى ذلك المنزل حوالى ثلاثين عاما ٠ ومما يذكر أن الأسرة نفسها أثبتت أنها غير عادية على الأقل بالنسبة لأسر كتاب ذلك الجيل فقد عاشت حياة سعيدة آمنة بدون مؤثرات تثير القلق ٠ وكان الأب رجلا طيبا هادئا ينهمك فى تدبير شئون الأسرة ويهتم بأطفاله ، وكان أول من لاحظ مواهب ابنه غير العادية، وأعرب عن ثقته فى أنه سيصبح كاتبا ، فى حين أن الأم النشطة المشغولة دائما فى أعمال اجتماعية كانت تتمنى أن يصبح ابنها من رجال البنوك ، وعندما أدركت أن قدرات جون وأحلامه تكمن فى مجال آخر ، انتابها احساس قوى بأنه سيصبح كاتبا ناجحا فى أحد الأيام مثل بوث تاركنجتون وكان قصصيا شعبيا محبوبا فى ذلك الوقت ٠

والواقع أن كلا الأب والأم كانا يعتبران المؤثرات الثقافية من النواحى الهامة الممتعة للحياة ، فكانت الأسرة تسافر بالقطار عدة مرات فى السنة الى سان فرانسسكو لمشاهدة مسرحيات وحضور حفلات موسيقية ، وكان الأبوان متعلمين يحبان الكتب ولذلك كانت من عادة جميع أفراد الأسرة أن يجتمعوا بعد العشـــــاء فى غرفة الجلوس ، ليستمعوا الى الأب والأم وهما يتناوبان قراءة كتب أليس الشعبية ، وقصص مغامرات روبرت لويس ستيفنسون ، أو حكايات من الأساطير الرومانية واليونانية · وفى عيد ميلاده التاسع تلقى جون بســـــعادة كبيرة هدية من أبيه عبـــــارة عن نسخة من Morte d'Arthur وكان هذا هو كتابه الأول ، وثبت أنه يلى الأنجيل من حيث أهميته ومدى تأثيره عليه · وفى السنوات التالية كتب شتاينبك ما اعتبره معظم القراء فى ذلك الحين وبعد ئذ قصصا ضاحكة ، أو حكايات تعبر عن السخط الاجتماعى ، وكان غالبا ما يبنى قصصه هذه على حكايات آرثر فيقتبس منها أفكارا أو موادا لرسم شخصية أو صياغة حدث كما فى قصة Tortilla Flat (١٩٣٥) وفى قصة In Dubious Battle (١٩٣٦) · على أن حيـــــاة الأسرة فى المنزل الذى يقع فى سنترال أفينيـــو رقم ٣٠ لم تكن بهيجة تماما فقد كان عمل الأب مرهقا كمدير ومالك لطاحونة سبيرى ثم أمينا لخزينة مقاطعة مونتيرى وكان أحيانا يبدو نافذ الصبر معتل المزاج فى المساء · أما مسز شتاينبك فقد كانت متفهمة وواقعية ولكنها كانت تصر على توضيح وجهات نظرها لكل فرد فى الأسرة ، ولذلك لم يخل الأمر من نشوب بعض الخلافات وسوء الفهم أحيانا · لقد كان من المنتظر من جون وشقيقاته الثلاث أن يعربوا عن الطاعة والاحترام الى حد معقول ، وفى الوقت نفسه لم يتوقع أحد أن يتواروا عن الأنظار أو يخفوا مواهبهم · ولم يكن الصبى الذى كبر مستعدا لأن يفعل هذا أو ذاك · والواقع أن فترة صبا شتاينبك مرت أحيانا بين الكتب وغالبا بدون رعاية · كان

الزعيم عادة بين الأطفال فى ذلك الجزء من المدينة ، وكان هو الذى يبادر بتكوين جمعية سرية ، أو يقابل أعداء خياليين ، أو يرأس عصابة تشتبك مع فريق منافس ! وكان أى مستنقع قريب يتحول الى موقع للمعارك أو القتال فى الطين • وقد حدث أكثر من مرة أن تورط جون بزعامته العنيفة فى مشكلة مع ربة أسرة فى الحى • ولكن العمل كان يشغله فى بعض الأحيان ، فرغم أن الأب كان يكسب مبالغ طيبة الا أن الأسرة لم تكن ثرية فاضطر جون الى العمل ليكسب عيشه • وقد قضى عاما أو عامين يحمل أوراقا لصحيفة مورننج جورنال وقد أدى عمله بكفاءة متوسطة • وفى المرحلة الثانوية كان يعمل فى مزارع مجاورة أثناء عطلة الصيف • أما المهمة الوحيدة التى رحب القيام بها فى تلك السنوات فقد بدأت فى عيد ميلاده الثانى عشر عندما فاجأه أبوه بمهر صغير The Red Pony وقد وضعه فى اصطبلات سبيرى فى شارع اسمه « جيل » والأرجح أن هذا المهر كان نموذجا لجابيلان فى قصة كاستروفيل • وكان الصبى يقوم كل يوم بتنظيفه واطعامه وتمشيط شعره ، ثم يمتطى صهوته فى الشوارع وفى قطعة الفضاء الفسيحة المجاورة للاصطبل • ولا شك أن امتلاكه للمهر زاد من شعبية جون بين أصدقائه •

لقد بدأ اهتمام شتاينبك بأسرار وجمال الطبيعة بتجارب صباه مع الحيوانات والطيور والأشجار التى كانت كثيرة داخل وخارج ساليناس • كانت النزهات التى يقوم بها مع الأسرة ، وعطلة الصيف التى يقضيها فى الشمال والغرب فى مونتيرى وباسيفيك جروف تعرفه على الشاطىء والحياة البحرية لخليج مونتيرى • وقد أدت الاستكشافات الأولى هناك الى دراسات فى المدرسة ، وبعد ذلك الى بحث مباشر فى الحياة البحرية وخاصة على شاطىء كاليفورنيا • ولم تكن الحقول والأراضى شرق ساليناس أقل اغراء ، ففى بداية

الربيع كان جون يصطحب صـــديقا له ويسيران فى اليزال رود ، ويبحثان عن طيور وأفاعى على طول نهر ساليناس • كانت هنـاك حفر مناسبة للسباحة على الشواطىء وبحيرات صغيرة فى الريف وحقول شعير وبنجر شرقى المدينة واليزال بارك على قاعدة جبال جابيلان بأطلالها القديمة التى خلفها جنود الجنرال فريمونت عندما قاتلوا القوات الأسبانية فى الأربعينات من القرن التاسع عشر •

والملاحظ أن البيئة العامة لقصص شتاينبك فى كاليفورنيا تضم منطقة مونتيرى ساليناس وماتسون فيل فى الشمال ووادى جواكين شرق جبال جابيلان وخاصة لونج فالى الذى يمتد جنوب ساليناس مسافة مائة وعشرين ميلا ، ويقع بين جبال جابيلان شرقا وجبـــال سانتا لوسيا الأكثر ارتفاعا ووعورة ، والتى تحف المحيط الهادى • ففى هذه المنطقة تقع أحداث أربع روايات وعدة قصص •

لقد ذهب شتاينبك الى الوادى لأول مرة عندما اســـتقل هو وبعض معارفه عربة الأسرة ، واتجهوا جنوبا على طول نهر ساليناس الى كينج سيتى التى تبعد ستين ميلا • وكان النهر الذى يبدأ أسفل سان لويس أوبسبو يجرى شمالا ويخترق وسط الوادى ويصب فى خليج مونتيرى شمال ساليناس • وكما ورد وصفه فى عدة أعمال بينهـــــــا East of Eden و Of Mice and Men كان نهر ساليناس كثيرا ما يفيض أثناء شهور الشتاء فيمتد عبر الوادى ثم ينخفض منسوب الماء فيه ، وغالبا ما يجف ويختفى تحت الأرض فى الشهور الجافة • وفى ســـنوات الرخاء تبدو أراضى الوادى الفسيحة الجميلة ثرية بمحاصيل الشـــعير والخس كما كانت فى شباب شتاينبك ، وكان عند ئذ يتطلع باعجاب من نافذة سيارة الأسرة الى الحقول الشاسعة على جانبى الطريق وفى سنوات تالية عمل

مساعدا فى مزرعة فى الوادى وفى الثلاثينات كتب تقـــارير عن اضطرابات العمال هناك ·

وأثناء المرحلة الثانوية كان يجوب فى جبـــال جابيلان التى تمتلىء فى ذلك الوقت بالغزلان والأرانب والثعالب والسناجب وتضم قطا جبليا وربما دبا نادرا ، ناهيك عن الصقور وأنواع كثيرة أخرى من الطيور · وقد ورد وصف جابيـــــلان وعدة وديان صغيرة فى Pastures of Heaven (١٩٣٢) وفى To a God Unknown (١٩٣٣) ·

لقد بدأت المرحلة الثانوية لشاينبك فى ١٩١٥ عندما سجل هو وسبعة وعشرون تلميذا آخر أسماءهم فى مبنى مكون من طابقين ومشيد بالطوب الأحمر وبلغ مجموع من سجلوا أسماءهم مائتين · والجدير بالذكر أن المرحلة الثانوية فى تلك السنوات كانت تبدأ فى الصف الثامن ، واستطاع شتاينبك خلال خمس سنوات أن يحصل على تقارير طيبة ولكنها ليست ممتازة بتقديرات جيد وجيد جدا فى معظم المناهج الدراسية · وعندما وصل الى الصف العـــاشر ثم الحادى عشر كان قد أصبح ولدا طويلا قويا بملامح كبيرة وشعر بنى مجعد وخجل محدود ، لا يستطيع أن يخفى ضحكة منطلقة أو مرحا قويا أو صراحة جريئة فى بعض الأحيان · وكان جون كما ذكر شخص فيما بعد اذا لم يعجبه زميل له فى الفصل ، أو آراء ذلك الزميل يقول له رأيه بصراحة ، ولكنه لم يكن متغطرسا بل كان يحظى بحب معظم زملائه · وقد انتخب شتاينبك رئيسا للفصل الكبير بناء على ميزاته الشخصية وتقاريره الدراسية ودرجاته فوق المتوسطة فى الألعاب الرياضية · كما انتخب أيضا مساعدا لرئيس تحرير صحيفة المدرسة « الجابيلان » ·

والجدير بالذكر أن مقالاته للصحيفة كتبت بأسلوب شـــائق جيد ، ومع ذلك لم يبد فيها ما يدل على روعة أعماله التالية ٠

كان شتاينبك الصغير يحدوه طموح أدبى كبير رغم أن هذا لم يكن معروفا الا لقلة من أصدقائه المقربين ٠٠ ففى ساعة متأخرة من الليل بعد أن يعود الأصدقاء الى بيوتهم ، أو فى المساء بعد أن ينتهى من دراسته ويأوى أفراد الأسرة الى الفراش ، كان شتاينبك يبقى ساعات يكتب فى غرفته فى الطابق العلوى ٠ وكانت جهوده موجهة أساسا الى القصص القصيرة التى كان يرسلها بالبريد الى المجلات دون أن يذكر عنوانه وكأنه يخشى أن يتلقى ردا برفضها ! كانت ثقته فى قدرته على الكتابة قوية عادة ، ومبالغا فيها أحيـــانا كما اتضح ذلك فى أحد الأيام عندما قال لزميل له فى الدراســـة بطريقة عابرة : « هل تعرف أننى أكتب أنقى لغـــة انجليزية فى العالم ! » لقد كان فى بعض الأحيان لا يستطيع كبح جماح حماسه الصبيانى !

كانت اللغة والأدب المادتين المنفصلتين بالطبـــع لدى الكاتب الطموح ، وكان ينتهز كل فرصة ليكتب مقالات وقصصا وخاصة فى موضوعات يختارها هو بنفســـه ، وكانت كتابته تجذب اليه عادة اهتمام المدرسين ، وكان أيضا يرحب بأى مهام أدبية ، فكانت قراءة قصص فلوبير وجورج اليوت وتوماس هاردى وتشـــارلز ديكنز وحكايات الانجيل والأساطير ٠٠ كانت قراءة كل هذا فى البيت تكمل قراءاته المقررة فى المدرسة لمسرحيات شكسبير ، وأجزاء من الفردوس المفقود ، وحكايات كانتربرى لتشوسر ، والشـــــعر الانجليزى الرومانطيقى ، ومؤلفات كلاسيكية أخرى مما جعل شتاينبك فى تلك السن أوسع قراءة من فولكنر وهيمنجواى وفتزجيرالد عندما كانوا فى نفس سنه ٠ وكان يفضل مناهج أخرى بينها اللغة اللاتينية وعلم

الأحياء الذى كان يدرسه على يد أستاذ ممتاز ٠

وفى أكتوبر عام ١٩١٩ بدأ جون شتاينبك دراساته المتنوعه بعض الشيء فى جامعة ستانفورد التى تبعد حوالى ثمانين ميــــلا شمال ساليناس ٠ ولكن الشاب الطويل المشاغب ذا السبعة عشر ربيعا لم يجد ما توقعه من استمرار نجاح وتفوق المدرسة الثانوية ، ولعله فى الواقع لم يتوقع هذا اذ لم ترقَ له نواح كثيرة من الحياة الجامعية ٠

لقد بدت له أنظمة الجامعــــة قيودا أو أمورا غير ضرورية ، وكانت الأمور الاجتماعية فى مساكن الطلبة وفى أماكن أخرى فى حرم الجامعة تتم بطريقة رسمية ، كما كانت الحفلات الراقصة تضم طلبة وطالبات ، ولم يتأثر جون بجمال أو صداقة الطالبات ، كما أن محاولات الاشراف على الطلبة وتنظيمهم فى مســـــاكن الطلبة كانت تثير ضيقه أو غضبه ، ومع ذلك لم يكن متمردا ٠ فقد حظى بحب الطلبة الذين عرفوه ، وأصبح زميلان أو ثلاثة زملاء أصدقاء عمره ٠

واعتزم جون دراسة الصحافة ، وحاول أن يتجنب بعض المناهج المطلوبة ، ولكنه سرعان ما اكتشف مثل غيره أنه لا يستطيع ذلك ٠ أما جهوده الرياضية فى ستانفورد فلم تشد اهتمام أحد ، فلم يشكل فريق كرة القدم ، وعندما حاول اللعب مع فريق البولو أصيبت ركبته اصابة خطيرة ، وانتهى من فترة الربيع الدراسية بتقديرات متوسطة ٠ ولم تكن نتائج جهوده فى السنة الثالثة أكثر نجاحا ، وقضى معظم الخريف فى مكتبات الجامعة يقرأ القصص الانجليزية والأوربية ومؤلفات كبار الكتاب الأمريكيين فى العشرات والعشرينات من القرن العشرين ومن بينها أعمال دريزر وشيروود أندرســــــون وسنكلير لويس وجيمس برانش كابل ، ورغم أنه استفاد كثيرا فى

أسلوبه وخياله من القراءة الا أن مستواه فى حضور المحـــاضرات والتقديرات قد انخفض • وكانت النزهات اليومية وجلسات الثرثرة من بين العوامل التى عاقت دراسته الأكاديمية • ولم يعبأ بتحذيرات الأصدقاء ولا بالتقديرات الضعيفة التى حصل عليها فى الخريف ، وفى وقت لاحق من ذلك الخريف تلقى انذارا من مكتب العميد وعندئذ انسحب شتاينبك من الجامعة •

وظل عامين بعيدا عن الجامعة •• فى أول الأمر اعتقد أنه قد خذل أبويه ، وحاول ولكنه فشل مما دعاه الى الهروب على ظهر باخرة بضائع فى سان فرانسسكو فعمل كاتبا فى أوكلاند وعمل بضعة شهور فى حقول الشعير والبنجر فى مزرعة ويللوجبى جنوب ساليناس • وقد أثبت العمل فى الحقل فائدته الكبيرة بعد خمســة عشر عاما عندما بدأ فى كتابة Of Mice and Men (١٩٣٧) • وبعد العودة الى ساليناس فى ربيع عام ١٩٢٢ أقام شتاينبك فى منزله وعمل فى مصنع سكرسبريكلز شرق المدينة ، وكان يقضى جزءا كبيرا من وقته فى الكتابة وقرر العودة الى ستانفورد فى شهر يناير •

ونجحت المحاولة الثانية فى التعليم العالى ، وبعزم وتصميم وهدف معين فى ذهنه غير شتاينبك منهج دراسته الى دراسة اللغة• وحصل على تصريح بدراسة المناهج التى يريدها اذا وافق عليهـا القسم ، ومضى قدما فى السنوات الثلاث الباقية فى ســـتانفورد وحصل على تقديرات أ ، ب فى معظم المناهج وبينها الانشاء والكتابة المبتكرة والأدب الانجليزى واللغة الفرنسية وعلم الأحياء والعلوم البحرية والتاريخ اليونانى والأدب اليونانى والفلسفة • ومع ذلك ظلت الأنظمة الجامعية والمهام الاجتماعية تثير فيه الملل أو السخط كما كانت دائما • لقد كان يفضل الاجتماعات غير الرسمية وجلسات

الثرثرة والنزهات فى المدينة سيرا على الأقدام ، وصديقة مستعدة لأن تشاركه أراءه وأحيانا فراشه !

كان اهتمامه الأول موجها الى الكتابة ، وكلما وجد الفرصة كتب قصصا أو قصائد شعر · وكانت القصص القصيرة كما روى الأصدقاء فيما بعد مسلية خيالية مثيرة رغم أنها لم تكن مصقولة· وظهرت قصتان فى « ستانفورد سبكتاتور » احداها بعنوان Fingers of Cloud وتدور حول زواج فتاة أقل من عادية من عامل مهاجر يحتفظ برؤوس خيل فى برميل مطر · والأخرى بعنوان Adventures in Arcademy وهى تسخر من حياة الكلية · وظهرت له أيضا ثلاث قصائد فى Stanford Lit. · ومما يذكر أن القصتين تقدمان خليطا من الواقع والرموز التى تميز قصص شتاينبك الناضجة ·

وفى يونيه عام ١٩٢٥ بعد خمس سنوات من الدراسة المفيدة رغم تقطعها ترك شتاينبك جامعة ستانفورد وكان فى الثالثة والعشرين من عمره ، وعلى عكس زملائه لا يحمل شهادة ، ولا يسعى الى وظيفة · وكان أهم ما يملكه موهبة قوية متنوعة وأفكارا كثيرة للقصص ومجلدا غير كامل لأول رواية تنشر له فى عام ١٩٢٩ بعنوان Cup of Gold .

كانت الخطط المباشرة للكاتب الشاب في شهر يونية هى اكمال المجلد ، وكان جزء منه يقوم على قصة فى ستانفورد لم تنشر بعنوان A Lady in Infra Red · وظل شتاينبك ستة شهور يراجع المجلد فى كوخ الأسرة فى باسيفيك جروف وفى باى سيتى قريبا من سان فرانسسكو ، ولكنه لم يستطع اكماله لفترة على الأقل واعترف شتاينبك بفشل مؤقت وسافر الى نيويورك على ظهر

باخرة بضاعة ، وأنفق معظم ما معه من نقـــــود فى الطريق فى محاولات فاشلة للفوز بقلب مسافرة شابة ! ٠

وفى نيويورك لم يكن أسعد حظا فقضى ستة أسابيع عاملا فى بناء حديقة ميدان ماديسون الأولى ، وفقد وظيفة مراسل لنيـــــويورك أميركان لأنه كان يكتب بأسلوب شخصى بحت ٠ وفى تلك الأثنـــاء عكف على كتابة القصص كلما اســـــتطاع ، وشجعه ناشر فكتب قصصا تكفى لجمعها فى كتاب ، ولكن عندما انتقل الناشر الى شركة أخرى عادت اليه القصص دون أن تنشر ٠ وظل الأمل يحدو شتاينبك فعاد الى كاليفورنيا مساعدا لبحار على ظهر باخرة ووجد وقت فراغ أكثر عندما عمل فى فرز الأسماك قريبا من تاهوسيتى ٠

وبينما كان منهمكا فى العمل فى المجلد الطويل علم شتاينبك بنبأ نشر أول قصة له ٠كانت قصة خيالية بعنوان The Gifts of Iban كتبها بأسلوب قصص ستانفورد وقد نشرت فى مارس عام ١٩٢٧ تحت الاسم المستعار جون شتيرن ٠ والأرجح أن شتاينبك لم يكن يرغب فى أن يرتبط اسمه بمجلة اسمها The Smoker's Companion .

وطوال فترات النجاح والفشل التى تخللت الحيـــاة الفكرية الطويلة لتشاينبك قدم له الأصدقاء الصحبة المفيدة والعون الكبير فكان يندر أن يشاهد بدون أصدقاء وقد برز بعضهم فى العشرينات٠ وبعد عودة جون من نيويورك عرض عليه تونى ستريت زميله فى ستانفورد عملا وأعطاه مسرحية كتبها ولم تنشر ليستعملها فى كتابة القصة الثالثة To a God Unknown . ٠ وفى تلك الســـنوات تلقى العون من زميل دراســــة آخر اسمه كارلتون شيفيلد وكانت له صديقتان أيضا ٠

وفى منتصف وأواخر العشرينات من عمره لم يعد شتاينبك مشاغبا أو خجولا بل أصبح رجلا طويلا عريضا وسيما يحب صحبة النساء ويحتاج اليها ٠

كانت أهم امرأة أثرت على حيـــاته تدعى كارول هيننج التى قابلها عام ١٩٢٨ وتزوجها فى عام ١٩٣٠ وكانت مثله فتاة قوية البنية منطلقة على سجيتها ٠ وقد ظلت سنوات كثيرة تعمل كاتبـة على الآلة الكاتبة وسكرتيرة ومراجعة نصوص فى مدن فى جنـوب كاليفورنيا وفى ياسفيك جروف حتى يستطيع الزوج المؤلف الاستمرار فى الكتابة ٠ وفى أواخر عام ١٩٢٨ جاءت أنباء طيبة تقول أن المجلد الطويل الذى روجع كثيرا قد حاز القبول وظهر Cup of Gold فى ١٩٢٩ ٠ كان المبلغ الصغير الذى قبضه مقدما مفيدا ، ولكنه لم يحسن كثيرا حالته المالية وخاصة أثناء سنوات الكساد الأولى ٠ على أن وضع شتاينبك فى أوائل الثلاثينات لم يكن سيئا اذا تذكرنا أن عشرة ملايين شخصا كانوا عاطلين فى عام ١٩٣١ ، والطوابير الطويلة التى كانت تنتظر أمام المطابخ لتأخذ حساء ، والمحـــال التجارية المغلقة فى انحاء البلاد ٠ لقد كانت كارول تحضر عادة « شيك » بأجر أسبوعى ضئيل ، وقد ساعدهما والد شتاينبك فسمح لهما بالاقامة مجانا فى كوخ ، وأعطاهما ٢٥ دولارا كل شهر ٠

وعاش الزوجان الشـــــابان فى باسيفيك جروف فى أوائل الثلاثينات يصيدان السمك من الخليج ليكملا به طعامهما ، وأحيانا يحصلان على الخضر والفاكهة التى يزرعها الفـــلاحون فى وديان مجاورة ولا يستطيعون بيعها ٠٠ ولم يكن الأصدقاء أحسن منهمـــا حالا ، وقد اعتادا الاجتماع مع أصدقائهما فى المساء فى بيت أحدهم حيث يشربون الخمر ـ وكان سعر الجالون منها يتراوح بين عشرين وثلاثين سنت فى ذلك الحين ـ ويتحدثون عن سياسات و٠د٠ روز فلت

ودلائل اضطرابات العمال فى كاليفورنيا ،والأعداد المتزايدة للعاطلين، وعن الأدب والفن والكتابة • وكان بعض الأصدقاء أعضـــاء فى الجمعية الأدبية فى شبه جزيرة مونتيرى ومنهم ايفلين أوث وهو طبيب نفسانى ، وجوزيف كامبل وهو خبير فى تاريخ الأساطير ، وقد عرف شتاينبك بأفكار يونج ومن بينها النمـــاذج الأصلية التى تظهر فى قصص تالية • وبعد أن قرأ كامبل To a God Unknown (١٩٣٣) نصح الكاتب الشاب باختصار فقرات من المناقشـــات الفلسفية التى لا صلة لها بالقصة ، وكانت هناك صديقة أخرى اسمها مسز جريجـــورى وهى مؤرخة محلية أقامت فى مونتيرى طوال حياتها ، وقد زودت جون بمعلومات عن سكان المنطقة الأجانب ، وجاء وصف هؤلاء الناس الذين ينحدرون من أصل أســـبانى وهنـدى ومكسيكى فى عدة قصص •

وفى عام ١٩٣٠ بدأت أهم صداقة فى حياة شتاينبك عندما قابل ادوارد ريكيتس وكان عالم أحياء بحرية ومديرا لعمل بحرى فى مونتيرى • كان ريكيتس أعزب ويكبر جون بعدة ســـنوات ويهتم بدراسة الثراء الرائع لحياة الحيوانات فى منطقة الخليج والجنوب على ساحل كاليفورنيا أكثر مما يهتم بادارة عمل مربح فى المدينة• وقد تلقى ريكيتس تعليمه فى جامعة شيكاغو ، وكان عالما جادا نابها أمد شتاينبك بالصحبة العاطفية والفكرية التى يحتاج اليها •

كان الرجلان متشابهين فى الطباع ويشتركان فى اهتمامهمـا بالفن والموسيقى والأدب ، والى حد ما بالخمر والنســاء • وكانا يشتركان أيضا فى الاهتمامات العلمية ، فرغم أن شتاينبك لم يكن عالما الا أنه درس الأحياء البحرية ، كما قرأ كتبا تتنـــاول نفس الموضوع • والواقع أن أنشطة وعادات القواقع والحيوانات الأخرى على الساحل كانت تشد اهتمامه دائما ، وكذلك الأفكار السائدة عن

تلك الحياة ومن بينها نظريات عالم الأحياء ريتر الذى دعم بدراساته الفكرة القائلة بأن الكل فى الحياة العضـــوية أكبر من مجموع الأجزاء ٠ والواقع أن ريكيتس الذى آمن بالفكرة ساهم كثيرا فى تفهم الكاتب واستعماله لفكرة « رجل الفريق » ٠

وخلال هذه السنوات العصيبة صدرت قصة Cup of Gold (١٩٢٩) وقصـــة The Pastures of Heaven (١٩٣٢) و To a God Unknown (١٩٣٣) ٠ الا أن هذه المؤلفات لم تقدم المعونة المادية ولا اعتراف النقاد ، وكان شتاينبك الذى بلغ الثلاثين يعتقد أنه يستحق كل هذا ، ويتوقع أن يحصل عليه قريبا ٠ وسوف يوجه الاهتمام الى قصة The Pastures of Heaven وهى أفضل هذه القصص فى فصل لاحق ٠ أما Cup of Gold فهو تصـــوير روائى للقرصان الأسطورى هنرى مورجان الذى جابت سفنه البحر الكاريبى فى عام ١٦٠٠ ٠ والقصص المليئة بالمغامرات والعواطف تبرز قدرة شتاينبك على رواية الأحداث ، وموهبته التى لا تنكر وخياله الرائع ٠ ولكن من سوء الحظ أن الشخصيات والأحداث تبدو غالبا سطحية جدا ٠ أما قصة To a God Unknown الأكثر نضجا فهى تدور حول عائلات من نيوانجلاند تستقر فى وادى ساليناس وتنجح وتثرى حتى يطردها الضعف البشرى والقحط ٠ وقد صورت فيها عدة شخصيات تصويرا عميقا ، كما أن وصف العائلات والحياة فى المزرعة كان مقنعا غالبا ٠ ومع ذلك فان انشغال الزعيم جوزيف واين بالتصورات وفشل شتاينبك فى مزج التصور والخيال بالواقع يضعف القصة على نحو خطير ٠ وفى عام ١٩٣٣ كتب شتاينبك Tortilla Flta على أساس التجارب مع المهاجرين الأسبان فى مصنع البنجر قريبا من ساليناس ، والمعلومات التى زودته بها مسز جريجورى ٠ وصدرت القصة فى عام ١٩٣٥ وهى رواية قصيرة

تدور حول النشاطات المضحكة لهؤلاء المهاجرين وهم يعيشون الحياة السهلة الحرة فى مونتيرى ٠

ورغم أن عددا من النـــــاشرين رفضوا Tortilla Flta فى أول الأمر ، الا أنها حققت رواجا كبيرا فى بلاده ، وهى التى جعلت شتاينبك يحقق بعض الاستقلال المالى فترة من الوقت ٠

وصدرت القصة In Dubious Battle عام ١٩٣٦ وهى مثل آخر على التنوع الملحوظ الذى يتميز به شتاينبك ٠ لقد كان شتاينبك واثقا فى قدرته وقوة ابتكاره ولذلك يندر أن يكرر نفسه ٠ والواقع أن شتاينبك استقى مواد هذه القصة الصادقة عن اضراب فى حقول تفاح كاليفورنيا من معرفته المباشرة بالعمال المهـاجرين والقادة الشيوعيين ، وظروف الزراعة فى وادى ســـاليناس ، كما استقاها أيضا من الفردوس المفقود للمتون ٠

وفى فترة الثلاثينات وما بعدها كان السفر ضروريا فى حياة شتاينبك ٠ فأحيانا يشبع به شعوره المعروف عنه بعدم الاستقرار ، وأحيانا يحتاج اليه للترويح عن نفسه من توترات الكتابة ، أو لجمع مواد لعمل جديد ٠ وقد استطاع أن يأخذ هو وكارول أجازة بعد رواج قصتى Tortilla Flat و In Dubious Battle فاشـــتريا سيارة مستعملة عام ١٩٣٦ ، وقاما برحلة قصيرة الى المكسيك ٠ وبعد العودة بدأ شتاينبك الكتابة عن المهاجرين بطريقـــــة أخرى مختلفة ٠

ومما يذكر أن قصة Of Mice and Men تقوم على تجارب ويلوجبى فى المزرعة ، وهى قصة واقعية عن عاملين مهـــاجرين اسمهما لينى وجورج يحلمان بالاستقرار يوما ما فى مزرعة يملكانها فى أى مكان ٠ وحقق ذلك الكتاب رواجا ٠ ولم يكن جون مستعدا لكتابة نص مسرحى فسافر هو وزوجته على ظهر باخرة البضاعة

عبر قناة بنما ، ومنها الى فيلادلفيا ثم نيويورك حيث اتصل بعملائه، وحضر حفل عشاء كبيرا أقيم تكريما للكاتب الألمانى توماس مان ٠ ومرة أخرى اعتمد على بساطة السفر على باخرة البضاعة فذهب مع زوجته الى أوربا وزارا انجلترا ومنزل أســـلافه وأقاربه فى ايرلندا ثم السويد وروسيا وبعد العودة الى الولايات المتحدة بدأ جون التعاون والعمل مع الكاتب المسرحى جورج كوفمان فى المسرحية المشـــــهورة Of Mice and Men وهى التى ظهرت على مسارح برودواى فى نوفمبر ١٩٣٧ ونالت اعجاب وتقدير المشاهدين والنقاد ٠٠ كما فازت بجائزة الدراما وبهذا العمل الكبير توصل جون الى النجاح والشهرة وفى عام ١٩٣٨ ظهرت قصة Long Valley وهى مجموعة قصيرة من القصص الخيالى وكانت تشمل قصص "The Chrysathemums" و "Flight" و "The Red Pony" . ولم يكن شتاينبك قد قام بأشهر رحلة له على الأقل ليس بالنحـــو الذى ورد فى التقارير المألوفة وهى الرحلة المزعومة فى ١٩٣٧ مع مهاجرين من أوكلاهوما عبر البلاد على الطريق الزراعى ٦٦ الى كاليفورنيا والمفروض أنها البداية للعمل في The Grapes of Wrath

وقد أشار جاكسون بنسون مؤخرا الى أن مثل هذه الرحلة لم تتم اطلاقا ٠ صحيح أن شتاينبك سلك ذلك الطريق فى ١٩٣٧ ولكن لم يكن معه الا زوجته كارول التي قالت فيما بعد انه لم يسجل أية ملاحظات على الرحلة ٠ والواقع أن الرحلة الهامة فى ذلك الخريف ـ وهى هامة جدا لقصة The Grapes of Wrath التى كتبها بعد ذلك ـ تمت فى كاليفورنيا عندما قضى شتاينبك أربعة أسابيع مع توم كولليبز ، وكان المدير والمشرف على معسكرات العمال المهاجرين فى الولاية ٠ وقد قطع الرجلان حوالى ٣٠٠ ميل من بيـــكرزفيلد الى نيدلز فى الوادى وعملا فى الحقول على طول الطريق مع مهاجرى الكساد ٠ كان شتاينبك معتادا على ظروف عمل المهاجرين منذ أيام

ستانفورد والمدرسة الثانوية ، وقد كتب فى عام ١٩٣٦ سـبعة تحقيقات صحفية لصحيفة سان فرانسسكو نيوز عن ظروف وأحوال المهاجرين فى عدة مناطق من الولاية • وقد اثبت انه مراقب دقيق الملاحظة شديد التعاطف •

وبعد فترة من قيامه بالرحلة مع كوللنز كلفته لايف بالكتابة عن المهاجرين ولكنها أفهمته أنها لن تدفع له الا نفقاته فقط •

كان شتاينبك قد شـعر بالاضطراب والغضب العميق بسبب ما رآه فى المعسكرات والحقول فكتب Their Blood is Strong و L'Affaire Lettuceberg وتضمنتا هجوما عنيفا على هؤلاء المسئولين عن مثل تلك الأحوال ، وكان ذلك قبل أن يبدأ العمل فى أروع أعماله Grapes of Wrath عام ١٩٣٩ التى كسبت الآلاف من القراء ، وجائزة بوليتز (١٩٤٠) ، وعضوية للمؤلف فى المعهد القومى للفنون والآداب وهى مؤسسة لها مركزها الأدبى الكبير •

وكانت هناك رحلة أخرى على وشك أن يقوم بها فى المستقبل القريب • فبعد استكشاف قصير لحيوانات خليج سان فرانسسكو فى عام ١٩٣٩ قرر شتاينبك وصديقه اد ريكيتس القيام بمغـامرة أكبر • وبعد شهور من الاعداد الدقيق قاما مع آخرين برحلة علمية عام ١٩٤٠ داخل خليج كاليفورنيا لدراسة عظام الحيوانات البحرية التى عاشت على الشاطىء • وبعد ذلك تعاون الرجلان فى وضع تقرير مفصل لتغطية مناقشات وأنشطة الرحلة • كما جمع ريكيتس معلومات علمية مكثفة عن الحيوانات الكثيرة التى تسكن فى البحر أو تعيش على الشاطىء • ولا شك أن الرحلة كانت مفيدة جدا لأن المحادثات مع ريكيتس والتجارب الأخرى ساعدت على توضيح آراء شتاينبك عن الانسان والطبيعة وعلاقة كل منهما بالآخر • ونشر

التقرير والدراسات العلمية بعنوان Sea of Cortez في ديسمبر عام ١٩٤١ وهو الشهر الذى قام فيه اليـــابانيون بهجومهم على بيرل هاربور ٠

كان شتاينبك قد قارب الأربعين فى ذلك الوقت ولم يستطع أن يتطوع فى الخدمة العسكرية فى بلاده فقرر المســاهمة فى المجهود الحربى بطرق أخرى ، فقدم بالتعاون مع آخرين أفكارا ليستخدمها الجيش ولكنها رفضت باعتبارها غير عملية ٠ ونجحت فكرة اقترحها الجنرال هاب أرنولد من القوات الجوية الأمريكية وهى أن يقوم شتاينبك بزيارة معسكرات ومدارس كثيرة للقوات الجوية ثم يؤلف كتابا عن ملاحظاته عن تدريب الجنود المكلفين بوضع أو نزع القنابل من الأسلحة ٠ وفى عام ١٩٤٢ صـــــدر كتاب Bombs Away واليه يرجع الفضل فى تجنيد أعداد هائلة ، وقد اشتراه ستوديو فى هوليوود بمبلغ قدره ٢٥٠٫٠٠٠ دولار ، وحول المبلغ الى القـــوات الجوية ٠ ولم يكتف شتاينبك بأدوار وراء الكواليس ، أو مجرد ابداء المشورة فعمل ستة شهور عام ١٩٤٣ مراسلا لنيويورك هيرالدتربيون وقام بتغطية معركة المشاة والبحرية فى البحر المتوسط ، وكان فى بعض الأحيان يهبط مع القوات المقاتلة على الشاطىء فى ايطاليا ٠ بعد ذلك نبذ دور الاستراتجى الهاوى أو التكتيكى العسكرى وآثر أن يكتب قصصا ذات اهتمامات انســـانية عن الجنود فى فترة الحرب٠وحظيت القصص والمقالات باطراء كبير لجدتها وصدقها٠وفى ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ اشترك شتاينبك أيضا مع آخرين فى كتابة القصة للفيلم النـــــاجح الذى أخرجه الفريد هتشكوك Lifeboat وقامت ببطولته تالولا بانكهيد ٠

والواقع أن الحياة الشخصية للكاتب مرت بتغيرات كثيرة خلال سنوات الحرب ٠ فقد أوشك زواجه من كارول أن ينهار كما توقع

أصدقاؤهما المقربون الذين شهدوا مشاجراتهما الكثيرة ٠

وتم الطلاق فى ١٩٤٢ ٠ وفى عام ١٩٤٣ تزوج شتاينبك مرة أخرى فى نيو اورليانز من الراقصة جوين فردون التى كان قد التقى بها فى كاليفورنيا ٠ كان شتاينبك يشعر بعدم الاستقرار فراح يتنقل من نيويورك الى المكسيك الى كاليفورنيا ، ثم يعود الى نيويورك ٠ ولعل ذلك كان يرجع الى الحرب والتغيرات فى حياته الزوجيـــة ومتطلبات عمله ٠ وأخيرا قرر الاستقرار فى مونتبرى فاشترى منزلا قديما فى المدينة ٠ ولكن بعد أن عاش هناك سنة لم يألف النـــاس فباع المنزل وانتقل الى نيويورك بصـــفة دائمة وأنجب ولديه فى ١٩٤٤ ، ١٩٤٦ ٠ وبعد انتهاء الحرب بعامين سافر شتاينبك والمصور روبرت كابا الى روســـــيا وكانت A Russian Journal التى صدرت عام ١٩٤٨ هى نتيجة تعاونهما ٠ وخلال هذه الفترة كتب شتاينبك أيضا نص الفيلم متوسط المستوى The Red Pony ونص الفيلم المتبـــاز Viva Zapata ٠ والملاحظ أن قصص شتاينبك فى تلك الفترة تكشف عن تدهور فى المستوى اذا قورنت بأعماله الأولى الرائعة وسوف تذكر أسباب ذلك فيما بعد ٠ أما قصة The Moon is Down (١٩٤٢) وهى قصة فى فترة الحرب العالمية الثانية وتدور حول احتلال بلد لم يذكر اسمه فقد حققت نجاحا كبيرا ٠ ونال شتاينبك من أجلها وساما من ملك النرويج ، ولكن كان ينقصها الواقعية والعمق ٠ وقد بدا شتاينبك على أرض أكثر صلابة فى قصة The Wayward Bus (١٩٤٧) وهى قصة روائية عن عربة أوتوبيس محملة بسياح من خلفيات مختلفة يعيشون سويا يوما أو يومين ، ويقومون بأدوار فى مسرحية خلقية واقعية ٠ وفى عام ١٩٤٧ أيضا ظهرت قصة قصيرة بعنوان The Pearl وتدور حول أسرة مكسيكية تواجه قدرها ٠أما أسوأ قصص بعد الحرب فكانت Burning Bright (١٩٥٠) وهى قصة رمزية عن زوجين عصريين لم ينجبا أطفالا ،

والعواقب التى ترتبت عن حمل الزوجة من رجل آخر . أما العمل الممتاز الوحيد لتلك الفترة فقد كتب في ستة أسابيع بعد قليل من عودة الكاتب من الحرب وهو بعنوان Cannery Row (١٩٤٥) وقد أهداه الى اد ريكيتس وهو تصوير مرح وحساس لأسلوب حياة سكان رو فى مونتيرى فى فترة السلم فى الثلاثينات . وفى أواخر الأربعينات وقع حادثان كان لهما أثر عميق على شتاينبك .

كان زواجه الثانى من جوين فردون على وشك الانهيار ، وفى ١٩٤٨ اتفقا على الطلاق . وكانت هناك ضربة أكبر فى انتظاره ، ففى ١٩٤٨ بينما كان فى شقته فى نيويورك تلقى نبأ اصابة صديقه اد ريكيتس فى حادث تصادم سيارة بقطار فى مونتيرى . وأصيب شتاينبك بصدمة عنيفة وهرع الى مونتيرى . وعندما توفى ريكيتس بعد أيام قليلة اضطر الكاتب أن يأخذ أقراصا مهدئة ويلزم الفراش. وقد كتب فيما بعد تحية الى ريكيتس وجعلها مقدمة لكتابه The Log of the Sea of Cortez الذى صدر عام ١٩٥١ ، وقدم له تحية أخرى عام ١٩٥٤ ، عندما خلق شخصية « دوك » فى Sweet Thursday .

وفى محاولة شتاينبك نسيان زواجه الذى فشل ، وصديقه الذى مات ، انكب على العمل فى نص فيفا زاباتا ، وفى كتاب كبير عن وادى ساليناس . ومع ذلك ظلت الوحدة . والذكريات الأليمة تقض مضجعه عدة شهور. وفى أوائل ١٩٤٩ بعد العودة من كوخ باسيفيك جروف التقى شتاينبك بامرأة أخرى كان لها تأثير هام على حياته ، فقد ساعدته اللين سكوت وهى انسانة موهوبة ومتفهمة على أن يجد نفسه مرة أخرى . وبعد طلاقها من زوجها تزوجت شتاينبك عام ١٩٥٠ . وعاد شتاينبك الى كتاب ساليناس بحماس وهدف .. كان المفروض فى بداية الأمر أن يكون الكتاب تقريرا روائيا عن أسرة والدته آل هاملتون ، وقد شمل الكتاب أيضا أسرة أخرى من

نيوانجلاند وهى أسرة تراسك ، وقد تمتعت هذه الأسرة الأخيرة بشهرة كبيرة أثناء الكتابة ٠ ولكن العجز الواضح فى ربط الأسرتين، والخلط الردىء للرموز والرومانطيقية أضعف العمل ٠ وفى عام ١٩٥٢ صدرت قصة East of Eden .

وعلى مر السنوات راقت لشتاينبك الحياة فى مدينة نيويورك فقد أحبها لعدم تميزها بشخصية معينة ، واستيعابهـــا لكل أنواع الناس والأنشطة ، وفرصها الكثيرة للكتابة والنشر والفن ٠ وبعد زواجه من اللين عام ١٩٥٠ شعر شتاينبك بالراحة والهدوء فى روتين حياة المدينة ، وتمتع بحياة هانئة مع أسرته فكان هو وزوجته يستضيفان الأصدقاء الكتاب والممثلين والصحفيين والناشرين فى شقتهما فى الشارع الثانى والسبعين ٠ وكانا كثيرا ما يذهبـــان لمشاهدة مسرحية ، وكان شتاينبك يجد متعة فى الوقوف بجوار نافذة الطابق الثالث ومراقبة المارة فى الشارع ٠ ولكن شعور الكاتب بعدم الاستقرار ظل ساكنا لفترة قصيرة فقط ، وبعد قليل من صـــدور East of Eden . عام ١٩٥٢ سافر الزوجان الى أوربا وأقاما فترة فى ايطاليـــا حيث راسل شتاينبك صحيفة Collier وكتب مناقشاته مع القادة الشيوعيين الايطاليين ، وساهم فى افتتاح معرض الفنـــون فى البندقية الذى اقتصر على عرض اللوحات الأمريكية فى ذلك العام ٠

ومرة أخرى زار مسقط رأس والديه فى أيرلندا عام ١٩٥٣ وقضى فترة كبيرة من عام ١٩٥٤ فى باريس حيث ساهم بكتابة عمود أسبوعى فى صحيفة فيجارو ٠ وفى السنة التالية رغب فى تغيير جو نيويورك فاشترى منزلا صيفيا فى ساج هاربور فى لونج ايلاند قريبا من منـــاظر وأصـــوات المحيط وقد سماه فيما بعد

Cannery Row East وهناك قضى مع زوجته عدة شـــــهور سعيدة نعما فيها ببساطة نسبية فى حياتهما ٠

قبل الخمسينات كانت الآراء السياسية للكاتب متضمنة فى القصص ، وكان يعبر عنها بطريقة غير مباشرة أحيانا ٠ ولكن فى أوائل الستينات تحول شتاينبك الى التعبير المباشر فاعترض بقوة مثلا على تكتيكات السيناتور ماكرثى من ولاية وسكونسين ، وفى باريس أدان أفكار وأفعال ماكرثى ٠ وعندما تأثر شتاينبك بخطب أدلاى ستيفنسون الذى كان يمثل الرجل الديمقراطى الليبرالى فى الستينات بدأ يساعد فى اعداد الخطب للحمـــلات الانتخابية فى ١٩٥٢ ، ١٩٥٦ ٠ وفى معركة اختيار مرشح الحزب الديمقراطى عام ١٩٥٦ رأس لجنة استشارية للحاكم ستيفنســـون ٠ وكان شتاينبك صـــديقا أيضـــا للسيناتور لندون جونســـون من تكساس ، وقد تحمس للدعاية له فى الحملة الانتخابية عام ١٩٦٤ ، وبعد ذلك عمل مستشارا للرئيس جونسون ٠

وقد اشترك شتاينبك فى حرب فيتنام بعدة طرق فاشترك ابنه الأكبر توم فى القتال ٠ وكان شتاينبك فى أول الأمر يؤيد الجهود الأمريكية وسياسات الرئيس جونسون فى فيتنام ٠ ولكن بعد مزيد من التفكير عقب زيارة قام بها الى فيتنام وهو فى الرابعة والستين من عمره غير آراءه ، ونصح الرئيس بسحب القوات الأمريكية ٠ ومما يذكر أن شتاينبك حصل فى عام ١٩٦٤ على ميدالية الحرية الأمريكية لخدماته فى تلك السنوات ٠ كما نال أيضا جوائز أدبية منها جائزة نوبل عام ١٩٦٢ وفى عام ١٩٦٣ اختير هو وكاثرين آن بورتر وسول بيللو وريتشارد ايبرهارت كمستشارين فخريين فى الأدب الأمريكى فى مكتبة الكونجرس ٠ وفى عام ١٩٦٤ اختير أمينا

لمكتبة جون كينيدى التذكارية · وفى عام ١٩٦٦ انتخب عضوا فى مجلس الفنون القومى ·

وكان تدهور مستوى قصص شتاينبك واضحا فى الأربعينات ، وقد استمر بظهور Sweet Thursday عام ١٩٥٤ وهو نظرة ثالثة وأخيرة الى كانيرى رو فى مونتيرى · ولكن ذلك العالم أصبح للأسف محترما فيحظى دوك مثلا بمنصب فى معهد التكنولوجيا فى كاليفورنيا وينهار الحلم · وفى عام ١٩٥٥ تحول الى مسرحية موسيقية بعنوان Pipe Dream أخرجها رودجرز وهامرشتاين · وهناك كوميديا أخرى بعنوان The Short Reign of Pippin IV (١٩٥٧) وهى قصة رمزية تسخر من الجو السياسى الفرنسى فى الخمسينات · وبسبب اهتمام شتاينبك دائما بالجو الأخلاقى فى أمريكا كتب The Winter of Our Discontent (١٩٦١) وهو أكثر واقعية وصدقا رغم أخطائه وتقع أحداثه فى مدينة لونج ايلاند ويقوم على التناقض بين الأشياء الهامة فى الماضى والأجواء السطحية فى الحاضر ·

وفى السنوات الأخيرة اهتم الكاتب بدراسة وترجمة Morthe d'Arthur لمالورى · وفى أواخر الخمسينات قضى شتاينبك عدة سنوات فى انجلترا يترجم أجزاء من الكتاب وقد نشر بعد وفاته بعنوان The Acts of king Arthur and His Noble knights (١٩٧٦) وخلال السنوات العشرة الأخيرة من حياته ظل شتاينبك محتفظا بنشاطه فى نواح أخرى أيضا · وظل اهتمامه بالعلوم البحرية كما هو · وفى عام ١٩٦١ اختير مؤرخا لمشروع موهول على شاطىء المكسيك ، وكان الهدف من هذه الرحلة على ظهر Cuss I هو دراسة طبقة من سطح الأرض · وقد سعد شتاينبك كثيرا باشتراكه فى الرحلة ، وفى ١٤ أبريل ١٩٦١ ظهر تقريره عنها

فى لايف • وكانت هناك أيضا خطط لرحلة علميـــــة الى الحاجز الصخرى الكبير على شاطىء استراليا ، ورحلة أخرى الى أمريكا الجنوبية مع باسكوم المشرف على مشروع موهول ، ولكن ارتباطاته الأخرى اضطرته الى الغاء هذه الخطط • وقبل ذلك فى عام ١٩٦٠ شعر بخيبة أمل عندما لم يفز ادلاى ستيفنســـون بترشيح الحزب الديمقراطى وقد شعر ـ ولعله على حق ـ بأنه فقد الصلة بالبـلاد بصفته كاتبا وشخصا عاديا • وقام شتاينبك برحلة فى مقطـورة صـــــغيرة مع كلبه الصـــغير • وفى عام ١٩٦٢ صدر كتابه Travels with Charley in Search of America وهو تقـرير شامل عن تجارب الكاتب عبر فيه بصراحة عن آرائه الايجابية عن الأماكن والأشخاص • ويظهر أيضا حب شتاينبك للبلاد والسكان فى America and Americans (١٩٦٦) وهو كتاب مصور يصف الأساطير والانجازات الأمريكية كما شهدها الكاتب •

وفى هذه الســـــنوات بدا الضعف وآثار الشيخوخة على شتاينبك رغم سلامة صحته • وفى عام ١٩٦١ أصيب بأزمة قلبيـة شفى منهـــا بدون عواقب مرضية خطيرة • وفى ١٩٦٣ أصيب بانفصال شبكى واضطر الى اجراء عملية جراحية فى عينه • وفى عام ١٩٦٥ أصيب بأزمة قلبية أخرى أخف ، كما بدأ يعانى من آلام شديدة فى ظهره فى عام ١٩٦٧ • وكان شتاينبك بعد شفائه من كل مرض يستمر يكتب الخطابات ويقرأ ويرى أصدقاءه ويسافر قليلا ويخطط ولو بشىء من التشكك للمستقبل • وفى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٨ بعد سلسلة من النوبات القلبية مات شتاينبك بهدوء فى شـــقته بنيويورك • ووری رماد جثته فى مقبرة الأسرة فى ساليناس •

منطقة شتاينبك

كتب جون شتاينبك كما كتب وليم فولكنر ويللا كاثير أفضل قصصه عن المنطقة التى نشأ فيها ، والأشخاص الذين عرفهم منذ صباه ٠ لقد أقام فولكنر اقليمه الأسطورى Yoknapatawpha الذى ظهر فى أعماله على أراض وأشـــخاص فى أكسفورد بولاية ميسيسيبى ، وعلى المدينة نفسها ٠ كما أن كاثير فى معظم قصصها ورواياتها الرائعة اقتبست موادها من رد كلاود بولاية نبراســـكا والمزارع المحيطة ٠

والواقع أن منطقة شتاينبك أوسع كثيرا من اقليم فولكنر ، أو مسقط رأس كاثير ، فهى تغطى آلافا من الأميـــال المربعـــة وسط كاليفورنيا ، وخاصة فى لونج فالى الذى يمتد جنوب سالينـــاس مسقط رأس شتاينبك على مدى مائة ميل ، وتقع بين جبال جابيلان شرقا وجبال سانت لوسيا على شاطىء الباسيفيك ٠ وتضم المنطقة أيضا عدة وديان صغيرة على طول الساحل ، كما تضم مدنا وقرى مبعثرة فوق مساحة واسعة تشمل مونتيرى وباسيفيك جروف وشمال غرب سالينا ، وتطل على الخليج بالاضافة الى واتسونفيل بجوار جبال سانتا كروز وساليناس نفسها ، وسولد اد وكنج سيتى وجولون جنوب الوادى ٠ وفى شرق الوادى وجبال جابيلان وفى حدود المنطقة أيضا يقع وادى سان جواكين وهو مكان أحداث أعظم عمل كتبه شـــــتاينبك The Grapes of Wrath (١٩٣٩) ٠ كما تقع على طول ساحل كاليفورنيا أحواض جزرية تزود القصص بالمواد وتربط الرجل ببيئته على نحو مثير ٠ ومما يذكر أن معظم أعمال شتاينبك الكبرى تحدث فى حدود منطقته ٠ فنجد مثلا أن لونج فالى هى المكان العـــــام لـ The Chrysanthemums (١٩٣٧) و

Of Mice and Men (١٩٣٧) و The Red Pony (١٩٣٨) و Tortilla Flat (١٩٥٢) كما أن مونتيرى هى موقع أحداث East of Eden (١٩٣٥) و Canery Row (١٩٤٥) و Sweet Thursday (١٩٥٤) وتظهر واتسونفيل وواد قريب فى In Dubious Battle (١٩٣٦) • وقد ورد ذكر ساليناس فى قصص وروايات كثيرة باعتبـــارها جزءا من East of Eden وربما تكون سولداد فى الوادى هى المدينة التى أشير اليها فى Of Mice and Men • أما كنج سيتى التى تزوج فيهـــا والدا شتاينبك عام ١٨٩٢ فهى مصـــــدر آخر لـ East of Eden . بينما تتناول Sea of Cortez وهى ليست قصة (١٩٤١) خليج كاليفورنيـــا والمكسيك ، فى حين أن عدة قصص وأجزاء من Cannery Row تتضمن أحداثا تقع فى الأحواض الجزرية بجوار مونتيرى •

وخلال حياة فكرية امتدت حوالى ثلاثين سنة ظهرت قصص دارت أحداثها فى مناطق أخرى أيضا من بينها منطقة الكاريبى ، وشرق الولايات المتحدة وفرنسا والنرويج وروسيا • والواقع أن قليـــلا من هذه القصص مثل Sea of Cortez (١٩٤١) و The Pearl (١٩٤٧) تعتبر ممتازة كما أن Winter or our Discontent (١٩٦١) فيها نقاط قوة •

ولا شك أن أقوى القصص تعكس التنوع الكثير الواســـع لمنطقة شتاينبك الرئيسية بجنسياتها وشخصياتها ومهنها المتعددة المختلفة ففى المنطقة يظهر مكسيكيون وأسبان وصينيون ، كما يظهر ألمان وايرانيون وانجليز • وفى المنطقة لا تجد فقط أصحاب مزارع

ومزارعين ، وانما نجد أيضا عمالا مهاجرين ورؤساء أحيـــاء وعاهرات ومتسولين · كما تجد صيادين ومدرسين وراديكاليين وعمالا فى حانات · أما الشخصيات فتضم الغنى والفقير وصاحب الدخل المتوسط والقادر والمتعصب والناضج والمتمسك بالأخــلاق الحميدة والمختل عقليا والتعيد · وتعتبر المنطقة الفسيحة عاملا أيضا فى صياغة الموضوع الرئيسى فى القصة بما فى ذلك علاقات الانسان بالأرض واغراءات الحياة البسيطة والصراع بين الأثرياء والمعدمين ونقائص أو أخطار وجود الطبقة المتوسطة ·

والجدير بالذكر أن اتساع وثراء المنطقة لم يرد ذكره فى أول رواية لشتاينبك وهى Cup of Gold (١٩٢٩) بحكاياتها عن القراصنة والمغامرات فى الكاريبى · ولكن فى الأعمال الكبيرة التى تلت هذا مبـــاشرة تظهر الاستـــكشافات الأولى وهذه تضـــم The Pastures of Heaven (١٩٣٢) و To a God Unknown (١٩٣٣) Tortilla Flat (١٩٣٥) ومجموعة قصص The Long Valley (١٩٣٨) · وفى مـــكان لاحـــق فى هـــذه الفصل سيبحث Tortilla Flat أول عمل كبير لشتاينبك وأول دراسة له للمدينة · الا أن المجال لا يسمح بوصف مفصل لـــ To a God Unknown التى وقعت أحداثها فى وادى نهر ناسيمنتو جنـــوب مونتيرى ، ودارت حول اخوان واين الذين يهاجرون من نيوانجلاند فى أوائل ١٩٠٠ ويستقرون على أرض الوادى المعزول · ويثبت اخوان واين وعائلاتهم شجاعة وحنكة الرواد فى تذليل الأرض وتحـــويلها الى أرض خصبة منتجة · ومع ذلك فان الخـــلافات الشـــخصية والعائلية بالاضافة الى القحط المروع الذى حدث فى ذلك الحـــين كان كفيلا بابعادهم عن الأرض ·

والواقع أن قصص The Long Valley التى كتبت فى الفترة بين ١٩٣٢ ، ١٩٣٨ يمكن أن تكون مقدمة رائعة لتنوع المنطقة ، ذلك أن خمس قصص تقع أحداثها فى The Long Valley أو فى منطقة قريبة · فى حين تقع أحداث قصة واحدة فقط هى Saint Katy the Virgin خارج المنطقة · وبينما نلاحظ فى معظم القصص أن العلاقة بين الانسان والأرض ثانوية أو تعالج بطريقة سطحية ، فان قصصا قليلة تبحث وتتحرى فى العلاقة تمهيدا لدراسات متفحصة عن الانسان والأرض فى In Dubious Battle و Of Mice and Men وخاصة فى The Grapes of Wrath . الواقع أن القصص تفيد فى تصوير ارتباط شتاينبك المبكر بالصناعة الأدبية وهى الأسلوب النثرى السلس الحساس وصيغ الربط المتعددة وطريقة المعالجة التى تتفاوت بين الواقعية وبين الخيال والرموز ·

وتعتبر القصص الثلاث الأولى من المجموعة من بين أروع وأشهر القصص القصيرة التى كتبها شتاينبك ، وهى معروفة أيضا بتصويرها للاماكن المحلية والشخصيات فى المنطقة ، فتبدأ القصة الأولى The Chrysanthemums بوصف مفصل لوادى ساليناس الخصيب :

« كان ضباب الشتاء المرتفع الكثيف يحجب وادى ساليناس عن السماء وعن كل بقية العالم · على كل جانب كان يجثم وكأنه غطاء فوق الجبال أحال الوادى الكبير الى آنية مغلقة · وفوق الأرض الشاسعة السوية أخذت المحاريث تدق الأرض بعمق ، وتركت التراب الاسود يبرق كالمعدن حيث انتهت الحدود · وعلى مزارع سفح التل عبر نهر سليناس بدت الحقول الصفراء المحصودة

غارقة فى ضوء الشمس البارد الباهت ، ولكن لم تكن هناك شمس فى الوادى الآن فى شهر ديسمبر » ٠

وعلى مزرعة فوق سفح التل يعيش الزوجان الليتز وهما فى مقتبل العمر ، وليس لهما أطفال ، ويبدو عليهما النجاح والسعادة بمزرعتهما وزواجهما ٠ وفى بداية القصة تعمل اليزا اللبن فى حديقة الزهور ، بينما يقوم زوجها هنرى باتمام صفقة بيع ٣٠ بقرة لمشترين لحساب شركة لحوم ٠ واحتفالا بالصفقة يقرر الزوجان قضاء المساء فى ساليناس ٠ وبينما تنشغل اليزا باعداد زهور Chrysanthemum جديدة تفاجأ بوصول رجل يصلح أوانى المطبخ ٠ ورغم عدم وجود شىء يحتاج الى اصلاح ، تبحث اليزا حتى تجد بعض الأوانى التى يمكن اصلاحها لأن الرجل يلح وهى تستجيب لالحاحه ، وأيضا لحديثه عن طريقة حياته ٠ وأخيرا ينصرف الرجل ومعه نصف دولار مقابل ما أنجزه من عمل ، وآنية زهور لشخص ما على الطريق ٠ وفيما بعد تشعر اليزا بالغضب عندما تكتشف آنية الزهور ملقاة على الطريق ٠

ان سعادة وأمن المزرعة فى الظاهر يخفى وراءه الوحدة وخيبة الأمل لامرأة ربما تحب ، ولكنها تشعر بقليل من الدفء فى علاقتها معه ٠ والواقع أن خطوط القصة البسيطة تزخر بالسخرية والصور التى يظهر فيها التناقض بين الأرض الخصبة وبين الزواج العاقر، بين ثراء الحقول وبين خواء اليزا فى داخلها ٠ ويساعد الحوار البارع على ابراز تلك المتناقضات ٠ فهناك تباين بين ملاحظات الزوج التافهة عن جوائز القتال ، وبين ملاحظات السمكرى المبتكرة من الزهور ٠ ورغم أن هنرى يسرع ويطرى مهارة زوجته فى تنسيق الزهور ، الا أنه لا يستطيع أن يقول كلمة عاطفية رقيقة عن جاذبيتها ٠ ويشعر السمكرى بما تحسه فى داخلها من خيبة أمل فيرد بأفعال

وأقوال مضللة • ونلاحظ أن وصف الحديقة يشير الى رضا اليزا الجزئى واحباطها الجنسى العميق • كما أن النباتات والأزهـــار لا تستطيع أن تعوض عن عدم تفهم الزوج وقلة عاطفته نحوها • انها تؤثر على الغرب ولكنها لا تؤثر على زوجها فعلا أو مجازا • وعندما تستقل اليزا السيارة ذلك المساء تشعر أنها منفصلة عن هنـــرى وعن السمكرى ، بل ان الرحلة نفسها على عكس رحلة السمكرى لا تؤدى الى أفق جديد ، فهى لا تتعدى مغادرة ساليناس والعودة اليها • ويبدو واضحا أن كل الأمور ليست على ما يرام فى حنـة شتاينبك !

وينتقل المكان فى The White Quail وهى القصة الثانية الى مشارف مدينة يعيش فيها مارى تيللر وزوجها هارى ويبـــدو الزوجان كما هو الحال فى The Chrysanthemums بدون أطفال، كما أن الزوجة مشغولة أيضا بالحديقة • كانت مارى تحلم قبـــل زواجها بمنزل جميل وحديقة وزوج تعيش معه • وتحقق الحلم ، وأصبح لها زوج يحبها ومنزل جميل وحديقة رائعة منســـقة • وهذا تجسيد كما تعتقد لجمالها هى نفسها وطيبتها • وعندما تبدأ حمامة بيضاء فى الظهور كل ليلة فى الحديقة تتم فرحة مارى لأنها كما تقول لهارى « انها مثلى » • ولكن سرعان ما تظهر قطة تهددها فى الحديقة •• وتصر مارى أن يقتل هارى القطة ، ولكن الزوج اللطيف الذى ينفذ رغباتها عادة يقتل الحمامة البيضاء بـدلا من القطة لأسباب لا يستطيع أن يفهمها •

ان المطابقة بين مارى تيللر وبين الحديقة والحمامة يشـــير الى مشاكل أعمق بكثير من مشاكل اليزا • فتجد أن حب مـــارى لنفسها الذى ينعكس فى هيامها بالحديقة والحمامة مركز جدا لدرجة أنه يحجب عنها هارى وحياتهما الزوجية • وبالليل غالبا ما تغلق

مارى الباب بين غرفتى النوم • والواقع أن خوفها أو كراهيتها للجنس والحياة خارج المنزل والحديقة الجميلة يختفى وراء سلوك مهذب ، وأسلوب حياة لا تشوبه شائبة •

ان قصة The White Quail مكتوبة باحساس عميق ومصوغة بعناية فائقة ولكن تنقصها حيوية The Chrysanthemums . وقد يكون هذا بسبب التركيز على الرموز ، فالحديقة والحمامة البيضاء رموز ثابتة لصفات مارى المثالية • فى حين أن القطة وأحراش التل القائمة تمثل تهديدات وأخطارا فى نفسها أو فى أشخاص غيرها • ظاهريا نلاحظ أن مارى تيلر شخصية مرسومة بمهارة ، وهى شخصية مألوفة عند شتاينبك وتفقد الصلة بالعالم الواقعى • ولكن الطبيعة الحقيقية لخوف وكبت مارى تبدو غير واضحة • وكذلك الغضب اللاشعورى للزوج المصاب بخيبة أمل عميقة والذى لا يلوم الا نفسه فى النهاية •

أما مكان القصة الممتازة "Flight" فهو ليس واديا خصبا أو مدينة هادئة ، وانما منطقة « تبعد حوالى ١٥ ميلا أسفل مونتيرى على الساحل المعزول » • وتمتد الى الداخل فوق الأرض الجبلية الوعرة • وتقع مزرعة توريز الصغيرة على سفوح الجبل فوق جرف ينحدر نحو البحر • وتعيش ماما توريز وأطفالها عيشة كفاف فوق الأرض القاحلة بعد وفاة الأب منذ عدة سنوات أثر عضة ثعبان سام • وتأمل ماما توريز أن ابنها الأكبر بيبى الشاب الطويل الكسول الذى فى التاسعة عشرة من عمره ، ويستعمل سكينه بمهارة ، تأمل أن يصبح رجل الأسرة فى يوم من الأيام • وفى صباح يوم أحد ترسله لقضاء حاجة الى مونتيرى حيث يقتل رجلا بسكينه ، وبعد عودته يأخذ بيبى معطف وبندقية أبيه ويركب حصان أبيه ويذهب

الى الجبال · ويهرب بيبى فى داخل الأرض بينما يتعقبه مطاردوه ويراقبه أشخاص سمر فوق الصخور ، ويتعين عليه أن يصـــارع الطبيعة أيضا · وأخيرا لا يستطيع بيبى وهو جريح وحيد الا أن يقف فى شجاعة ويصاب بطلقة من مطارد لا يراه ·

والواقع أن قصة Flight اغنى واكثر تعقيدا من قصـــة The White Quail أو The Chrysanthemums ، كما أنهـــا تتميز بعدة مستويات ، فالمنحدرات القاحلة التى تزرعها أسرة توريز وهروب بيبى من مطارديه والأرض الجبلية الوعرة الخطيرة أحيانا والحيوانات المفترسة والانهيار الجسدى لبيبى ·· كل هذا موضوف بأسلوب واقعى متين · فى حين أن المشهد والحدث والشخصية معروض بوضوح · أما المستوى الرمزى فهو ليس أقل اقناعا ويصور جانب التهكم فى القصة · فهروب بيبى يؤدى الى رجولته ولكنه يقوده أيضا الى حتفه ، والطبيعة البدائية التى يهرب داخلها تدمره وتحميه فى نفس الوقت · ويحاول الشاب أن يتكيف مع مطارديه وأخطار الطبيعة بقدر ما يستطيع · ويمثـــل سبع الجبل كلا من الحيوانية التى ينحدر اليها بيبى ومصدر الموت الذى لا يهـــرب منه كما أن القصة غنية أيضا بعناصر رمزية منها ممتلكات الأب التى يفقدها بيبى شيئا فشيئا وهو يزداد توغلا فى الخطر ويقتـــرب من رجولته ، ومنها المراقبون السمر الذين يرمزون الى الموت ، كما يمثلون قوانين المجتمع · والواقع أن الرحلة نفسها حقيقة ورمز فى نفس الوقت ، وهى صياغة جديدة لموضوعات تقليدية مثل الهروب من المجتمع الى داخل الأحراش والأرض الوعرة ، أو المعر من البراءة الى التجربة ·· النمو المؤلم الى النضـــج · وتتوحد كل نواحى القصة هذه بفضل بؤرة الدراما فى كل مشهد وعلى وضع بيبى الذى يزداد صعوبة ·

ومن بين القصص ذات المستوى الأقل فى The Long Valley
تقدم عدة قصص أوضاع مدينة صغيرة فى المنطقة ، وتصور أنواعا
من التكيف والعنف ، ويضعفها ميل شتاينبك الى خلق شخصيات
رمزية تهدف أساسا الى التعبير عن فكرة أو موقف أو عاطفة • كما
أن اهتمامه بالصور الذهنية غالبا ما يؤدى الى خلق شخصية
تبدو هى نفسها أو مبررات وجودها غير مقنعة !• وهذا واضح
فى قصة The Snake عندما تزور امرأة دكتور فيليبس فى
معمله بمونتيرى وتشترى أفعى رنانة ثم تراقب ببطء حركاتها
وهى تلتهم فأرا •• قد نصدق الطبيب ولكن المرأة التى تمثل الشر
أو الخواص الثعبانية البدائية لا يمكن تصديقها • وتقع أحداث
The Raid وهى قصة قصيرة أخرى فى مدينة تمهد لـ
In Dubious Battle بتصوير العنف والصراع الاقتصادى ، ولكن
مثالية الرجلين الراديكاليين مشروحة باللغة الرمزية أكثر منها
بالتعبيرات النفسية • أما قصة The Vigilante وهى تدور حول
رجل فى مدينة صغيرة وردود فعله على جريمة قتل فانها تحلل
الشخصية بطريقة أوقع ، وتربط الجنس والعنف بطريقة شائقة •

وفى Johny Bear نجد معالجة مفصلة بعض الشىء
لمدينة ،وما يحيط بها والشخصية التى أخذت الرواية منه اسمها شخص
أبله ولكنه موهوب يثرثر مع علية القوم فى حانة المدينة ، فتكشف
أحاديثه عن خطايا أخوات أرستقراطيات من آل هوكنز كان كل فرد
فى لوما يحترمهن حتى ذلك الوقت باعتبارهن فاضلات عفيفات
وتشمل بقية القصص فى مجموعة The Long Valley قصة
Saint Katy the Virgin وهى سخرية مضحكة تشترك فيها خنزيرة،
وتبدو الكنيسة الكاثوليكية فى غير موضعها فى المجموعة • وتشمل
Breakfast وهو وصف ظهر ثانيا فى The Grapes of Wrath
وقصتين بعنوان The Harness و The Murder تتحدثان

عن أسر تعيسة بلا أطفال تعيش فى المزرعة · وفى قصة The Harness نجد بيتر راندال المزارع المحترم ذا الظهر المستقيم والكتفين العريضتين ينهار بعد وفاة زوجته المريضة المعقدة · ويعترف بعد ذلك لجار له بأن زوجته ظلت تسيطر عليه طوال واحد وعشرين عاما لدرجة أنها طلبت منه أن يرتدى حزاما ودرعا حتى يبدو مستقيما نحيلا · ويحاول راندال أن يتخلص من السيطرة فيرتدى ما يروق له ، ويعمل ما يشاء ، ويعيش كما يحب فى سان فرانسسكو ، ولكنه يكتشف أنه لا يستطيع الهروب · وفى حكاية مناقضة نجد أن جيم مور فى The Murder يرى زوجته جيلكا لطيفة سهلة القياد لا تهتم كثيرا بالناحية الجنسية · ويقوم جيم بزيارة مونتيرى كل أسبوع ، وفى ليلة من الليالى يفاجأ بجيلكا وابن عمها فى الفراش · فيطلق جيم النار على الرجل ويبلغ المأمور · وفى اليوم التالى بعد مصالحة غير عادية مع جيلكا يقرر جيم أن يبنى منزلا جديدا بعيدا فى جنوب الوادى ·

ولعل أبرز ما فى المجموعة هى قصة The Red Pony وهى رواية قصيرة ممتازة تبحث علاقة الانسان والأرض بطريقة أكمل من أى عمل آخر باستثناء The Grapes of Wrath التى نشرت بعد عام ·

ان جودى تفلن صبى نابه مبتكر فى العاشرة من عمره ويبدى اهتماما كبيرا بمعظم الأشياء والأنشطة على المزرعة فى الوادى · وفى الجزء الأول The Gift نجد الصبى يقوم بواجباته كما ينبغى فيلعب فى المزرعة ويذهب الى المدرسة · وفى صباح أحد الأيام يشعر بالدهشة والسعادة عندما يعطيه أبوه الصارم مهرا أحمر هدية له فى عيد ميلاده · ويعتنى جودى بالمهر بمساعدة بيللى بك الأجير الذى يعمل فى الأرض، ولكن تحدث أخطاء ويموت المهر·

وفى The Great Mountain يقوم رجل مكسيكى عجوز يدعى جيتانو بزيارة المزرعة فجأة ليموت كما يقول فى مسقط رأسه ! وبينما تبدى مسز تفلن وجودى رغبتهما فى أن يبقى ، يرفض الأب بقاءه أكثر من ليلة واحدة · وفى اليوم التالى عندما يختفى جيتانو متجهـا الى الغرب يشعر جودى بأنه يفقد شيئا ·

وفى The Promise يضطر جودى للعمل طول الصيف حتى يحصل على مهر آخر · وعند مولد المهر يكتشف بيللى أنه لابد من أن يقتل الفرس حتى ينقذ المهر · ورغم ذعره من المنظر المروع لا ينصرف جودى · أما الجزء The Leader of the People فيتحـدث عن زيارة والد مسز تفلن وهو رجـل عجـوز ودود وتبدو حكاياته عن الغرب مألوفة للجميع فيحبها جودى ، ويتعاطف معها بيللى · ولكن كارل يبدو نافذ الصبر ويعترف الجد لجودى أنه يريد الآخرين فقط أن يعرفوا ما شعر به هو وأتباعه فى ذلك الحـين ·

وعلى عكس بيبى التعيس فى Flight يكبر جودى على أرض خصبة طيبة ، ويستفيد من حياة عائلية آمنة ، ويعيش بعـد خصومه الذين يموتون أو يواجهون ظواهر طبيعية غير متوقعـة · ولا شك أن رواية شتاينبك لحياة جودى وصموده تظهر واقعية حلوة مفصلة · وتأخذ انطباعا ثابتا عن مظهر الولد الخارجى ولعبه مع « دوبل ترى مات » واحترامه لأبويه وعلاقته الوثيقة بباك · ولا شك أن اللغة ووجهة النظر الحساسة تخلق احساسا بما يدور فى داخل جودى أيضا من أحلام يقظته عن جيوش تسير فى الطريق وراءه ، والمهر الكبير الذى بجانب نيللى :

« ثم وجد نفسه يوقف مهرا كبيرا ·· وفى لحظات قليلة كبر

المهر وأصبح حيوانا رائعا له عنق مرتفع ومقوس مثل عنق فـرس البحر · وذيل يهتز ويتموج مثل شعله سوداء · كان هذا الحصان يثير فزع كل شخص الا جودى ·· وفى فناء المدرسة كان الأولاد يتوسلون ليركبوه ، وكان جودى يوافق مبتسما ، ولكن لا يكـاد يركبه ولد حتى يرميه الشيطان الأسود بعيدا » ·

ولا تنفصل أوصاف أنشطة المزرعة والريف والأشخاص عن وصف صبى يكبر ·· بل ان الأوصاف ووجهة النظر والتركيز على مناظر المزرعة وأنشطتها وعلى جودى بوجه خاص يربط الأجـزاء الأربعة للقصة ·

ويصور الكبار فى القصة بمهارة فائقة ، والأم التى تبدو عاطفية أو قلقة أو حانقة أقرب الى الواقع من الأب الصارم رغـم عدم اشتراكه فى أى شىء · أما بيللى باك الذى يقدم بطريقة مؤثرة وواقعية فانه يمد جودى بالاهتمام اليومى الضرورى · ويتعـلم جودى تفلن من التجربة مثل نك آدمز الصغير فى قصص هيمنجواى، ولكنه يستمد خبرة من الحياة فى المزرعة وممن هم أكبر منه سنا ، فيعرف أن الموت شىء طبيعى ، وأن الحياة تحتاج الى تضحيات ، ويتعلم مثل نك أيضا أن قوى الطبيعة يمكن أن تكون خطيرة وتاتى فجـأة ··

وتمثل الفصول الأخيرة من The Red Pony نضج جودى ورحابة صدره ازاء الآخرين ، وتشير الى أنه سيتفوق على مدرسيه فى النهاية ·

ويتركز أول كتاب كبير لشتاينبك و The Pastures of Heaven (١٩٣٢) على مسـاحة محدودة من الحقـل القصصى · وكان

Corral de Tierra الذى يبعد عن مونتيرى بحوالى ١٢ ميلا واديا مألوفا لشتاينبك فى صباه • وكان الوادى فى أواخر العشرينات مكان الأنشطة التى أصبحت أساسا لـ The Pastures of Heaven

وكما شرح شتاينبك لناشره فى عام ١٩٣١ عاشت عشرون أسرة فى سلام فى الوادى الجميل « فى التلال » ، حتى وصلت أسرة جديدة وبدون أى قسوة أو نوايا شريرة من ناحيتها كانت السبب فى حدوث « جريمتى قتل وحادث انتحار ومشاجرات كثيرة وقدر كبير من التعاسة » •

والواقع أن مثل هذه الأحـــداث والمواد أثرت بعمق عـلى الكاتب الذى خلقها من جديد فى ضوء تجاربه الخاصة وخيـــاله القوى ويظل الموقع Coral he Tierra •• فالوادى الذى اكتشفته امباش أسبانى عام ١٧٧٦ وســماه Las Pasturas del Cielo كان فى الستينات من القرن التاســـع عشر لأسرة باتل وعائلات أخرى ثم لأسرة ماستروفيكى فيما بعد • وعندما مات أفراد أسرة باتل على المزرعة ورحل عنها أفراد أسرة ماستروفيكس أصبحت تحمل لعنة ! وفى العشرينات تشترى أسرة ماستروفيكس المزرعة متجاهلة اللعنة وتمضى قدما بكل براءة لتجلب الأسى أو الفشـــل على الآخرين فى الوادى • وأول من يعانى من ذلك هو شـــارك ويكس فتهتز سمعته كرجل مالى موهوب نتيجة لاهتمام جيمى منرو بابنة ويكس • ويليه تولا ريسيتو وهو أبله قوى يتمتع بقدرة فائقة على الرسم ويوضع فى اصلاحية بعد أن يعتدى على بيرت منرو • وتفاجأ مسز هيلين فان ديفنتر وابنتها هيلدا المختلة عاطفيا وهمــا وافدان جديدان على الوادى بزيارة قصيرة من جارهما بيرت ، فاذا بملاحظاته المتهورة رغم نواياه الطيبة تؤدى الى موت الابنة •

ويستمتع جونيوس مالتبى وابنــه بحياتهما البسـيطة المنتجة فى المزرعة حتى تواجههما مسز منرو وأشـــخاص آخرون بحقــائق اقتصادية فيضطران الى الرحيل ، وتترك الأخوات لوبيز وموللى مورجان الوادى بسبب ملاحظات أبداها بيرت منرو · كما تلتهـم النيران منزل جون وايسايد بعد أن يصر بيرت على احراق الحى المجاور · وفى النهاية تأتى سيارة أوتوبيس محملة بسياح ويتطلعون الى الوادى الجميل ويسبحون فى أحــلام كبيرة بحيــاة سعيدة هنــاك !

ورغم أن قصة The Pastures of Heaven مكتوبة بمهارة كبيرة، الا أن عدة نواحى منها ليست مرضية تماما ، فوحدة القصة نفسها مشكلة ، لأن الكتاب يمكن اعتباره مجموعة من القصص أو رواية طويلة مفككة · فاذا اعتبر من النوع الأول نجد أن عوامل البيئــة أو الأرض وسخريات التواجد فى الوادى وآل منرو لا تسود بدرجة كافية بحيث ترتبط وتوحد الحلقات المختلفة فى نطاق قصة عامة ، ويمكننا أن نبحث أولا العلاقة التى تربط عنصرى المكان والسخرية·

ان مناظر وأنشطة كثيرة فى Las Pasturas Del Cielo تبعث احساسا بالهدوء والرضا · فالفصلان الأول والأخير وهما المقدمة والخاتمة فى الواقع ـ تحيطان الاحداث بأوصاف الوفرة والخصوبة ونقرأ فى الفصل الأول : « كانت أرضهم غنية يسهل زراعتها ، وكانت فاكهة حديقتهم أفضل انتاج فى وسط كاليفورنيا » · وهذا الوصف الذى يشير الى الستينات فى القرن التاسع عشر ينطبق أيضــا على العشرينات فى القرن العشرين · ويجد أشخاص وعائلات كثيرة فى الوادى الحرية للتعبير عن أنفسهم · ان تولاريسيتو له طريقة طبيعية مع الحيوانات · ومما يثير السخرية أنه يأمل أن يجـــد أصدقاءه فى الأرض الطيبة ، فى حين يتمتع جونيوس مالتبى وروبى

بحيـــاتهما الكســـولة على الزراعة ، كما أن نجـــاح ورفاهيـة رايموندبانكس يرجع الى الأرض الى حد كبير · وتحب بات همبرت الأرض ، وتعمل لتنسى المنزل وذكرياته ، ويسعى بيرت منرو للتغلب على حظه العثر فى مكان آخر فيصبح مزارعا ناجحا « وجزءا من الوادى » ، وحتى هيلين فان ويفنتر المضطربة عقليا تجد هدوءا وراحة ذهن فى حديقتها فى بعض الأحيان،كما أن آل وايتسايد مدينون بتاريخهم وتقاليدهم للارض والوادى ، وبالتالى يتوقعون منهما الكثير وهناك آخرون مثل الأخوات لوييز ومولى مورجان وهم أقل ارتباطا بالأرض ، ومع ذلك يستفيدون لفترة من هدوئها وأمنها ·

على أن الوادى الجميل يحتوى على لعنات خفية وظاهرة ، فالأمباش يموت من الجدرى وأسر باتل وماستروفكس تختفى فى النهاية · أما مزرعة باتل فكانت « دائما مكسوة بالكآبة والتهديد · فالأشجار التى تنمو حول منزل مهجور أشجار قاتمة ، والظــلال التى تلقيها على الأرض لها أشكال توحى بمعان معينة· أما الأعشاب التى كان لها طاقة غير مجهدة ، ولا تخشى ضربات المنجل فتنمو وتكبر الى حجم اشجار الصغيرة » ·

ان شبح الكآبة والتهديد الذى يخيم على الوادى قد يرجع أيضا الى لعنة غير محسوسة مثل الآثار الضارة لمستويات وتطلعات الطبقة المتوسطة ، وهذه السخرية بالذات هى التى تسود وتربط الأحداث المختلفة وتصوغ أقدار الشخصيات الموجودة·وهكذا نجد فى الوادى الجميل رجلا مثل ويكس يحـاول أن ينال سمعة باعتباره ماليا موهوبا ، فلا ينجـــح الا فى ايذاء نفســـه وأسرته ، ويفقد تولاريسيتر حريته لأن عقليته لاتفهم قوانين مجتمع الطبقة الوسطى التى تتحكم فى التعليم وحقوق الملكية · ويؤدى عدم المبالاة بالمظهر الشخصى وصيانة المزرعة الى رحيل مالتبى من الوادى ·· ورغـم

أن بات همبرت يوجه لأرضه العناية الطيبة الا أنه لا يستطيع الهرب من الأعباء النفسية بالعمل ·· ويكتشف وايتسايد أن تقاليد الأسرة وانجازاتها ومثلها العليا لن تخلك الأسرة ، وأنه من الضرورى وجود سلالة كثيرة العدد متشابهة التفكير ·

والواقع أنه يصعب تحديد مدى مايساهم به آل‌منرو المنتشرون فى ربط أحداث وسخريات القصة ، ولا يحتمل أنهم يساهمون فقط فى نقل لعنة مزرعة باتل لأن اللعنة الرئيسية كما أشار عدد من النقاد تكمن فى الآثار الضارة الناجمة من احترام الطبقة المتوسطة · وهناك من يقول أن آل منرو يؤذون غيرهم بسذاجة من خلال نواياهم الطيبة الجامدة ، وأن كل مثال من هذه النوايا أسوأ مما قبله · فاذا صح هذا يمكن أن يوحد هذا التطور المتصاعد أجزاء القصة من أساسها· على أن هذا لا يحدث ، فالأحداث اللاحقة لا تبدو أسوأ من السابقة، بل ان بعضها يبدو مفتعلا ، أو مجرد تطابق بالصدفة · فيصدف أن يردم بيرت منرو الحفر التى حفرها تولاريسيتو ، ويصدف أن يسمع بات هميرت ملاحظـــــة ماى منرو الى أمهـــــا · كما أن نكات بيرت على حساب ماريا لوبيز والين هوينكر وردود فعله العصبية ازاء بانكس لا تبدو لائقة ·· وفى أحداث أخرى يساهم آل منرو الذين يسببون الأذى ببراءة فى ربط الشخصيات وتصوير التهكمات الرئيسية ، وهكذا يزيد الانطباع عن القصة بأنها رواية مفككة ·

وهذا الربط يكتسب دعما من الشخصيات التى تتحدد مواقفها بالنسبة لأوضاعها الأخيرة فى الوادى الجميل بأحلام ووساوس ·· ففى البداية ينسجم شارك ويكس مع الجيران والأسرة عندما يبـدو شخصا مختلفا عن حقيقته · ولكن انغماسه فى هذا الدور يضعف الصلات العائلية ويضلل الناس ويؤدى الى رحيل الأسرة كلها فى النهاية ·· ويبدو عالم أحلام هيلين فان ديفنتر أكثر تعقيدا · فمنذ

أن كانت فى الخامسة عشرة من عمرها وهى تقبل المآسى باعتبارها أسلوبا للحياة ، وتعتبر نفسها قادرة على احتمال أى عبء · ومع ذلك يرغمها وفاة زوجها وشذوذ هيلين على الاختفاء داخل مقصورة محصنة بها غرفة تذكارية لزوجها ، وغرفة أشبه بزنزانة لابنتها · ومما يثير السخرية أن هيلين الجميلة لا تقل شذوذا عن ابنتها ، ولا تقل عنها رغبة فى العنف وفى محاولة ابعاد الآخرين عن تحطيم الحلم الذى تقوم هى نفسها بتحطيم جزء منه ·

ويعيش أيضا بات همبرت وموللى مورجان الى حد ما فى أحلام لا تؤذى أحدا غيرهما · كما أن آراءهما عن الواقع تبدو محددة بالماضى مثل ريكس وهيلين فان ديفنتر ·· ويحاول بات الخجول الحنون الهرب من ذكريات أبويه الكئيبة بالمساهمة فى أنشطة جماعية فى الوادى ، ولكن بات ينبذ غرفة الجلوس المعزولة فى المنزل ويعيش فى المطبخ الا عندما يكون خارج البيت يعمل · وتظهر لهفة الرجل المذعور فى البحث عن شخص يتعاطف معه فى محاولاته التى تسيطر عليه لايجاد منزل أحلام لفتاة أحلام لا يعرفها · وعندما ينهار الحلم ينهار بات همبرى · وتبدو موللى مورجان واقعية ومرنة فى عـدة نواح ، وتحظى باحترام كبير فى الوادى كمدرسة وفتاة · على أن حياتها العائلية التعيسة وذكرياتها عن أب شريد تعدل من آرائها عن الواقع · ويزود آل وايتساند موللى بالحب والأمان الذى لم تجـده فى منزلها ، ولكنها لا تستطيع أن تواجه حقيقة أن أباها كان شريدا دائما · وفى محاولتها للاحتفاظ بفكرتها الواهمة عنه بأنه مغامر وأب طيب تضحى بسيادتها ومركزها فى المجتمع ·

وهناك فريق آخر من الشخصيات فى الوادى الهادىء يشمل هؤلاء الذين لا يصلون الى مستويات الوادى أو الطبقة المتوسطة بسبب نقص فى الذكاء أو التفكير أو الخيال ، واقدار هؤلاء تقوى ربط أحداث الموضوع ·

عندما يترك تولاريسينو مع جوميز فى المزرعة يعيش راضيا لأنه ينسجم مع الحيوان والنبات بطبيعته ، ولكن تولاريسيتو يظل لاهيا عن تطلعات الآخرين لأن قدراته الكبيرة وبساطته الطبيعية لا يقابلها قدر كاف من الذكاء . وعندما تواجه الأخوات لوبيز موقفا صعبا لا يكون ردهن عليه بالعنف مثل تولاريسيتو وانما بالعاطفة والجنس .

وهن على عكس تولاريسيتو لا يؤذين أحدا ، ولكنهن مثله لا تدركن مقاييس المجتمع وهى فى حالتهن العوامل المختلفة التى تحرم الدعارة . وهكذا يتعين عليهن أيضا الرحيل من الوادى . أما رايموند بانكى فهو على عكس هذا يتمتع بتقدير الناس لمهارته فى ادارة المزرعة وكرمه المثالى . على أن الرجل بليد الاحساس فهو يقتل الأفراخ بقدرة كبيرة ، ويقوم بدور بابا نويل دون أن يبتسم، ويحضر تنفيذ عقوبة الاعدام فى السجن ليشارك الآخرين فى ردود فعلهم . وبعد أن ينبهه بيرت بقسوة ربما يغير بانكس موقفه الساذج من العنف .

ويمثل جونيوس مالتبى وجون وايتسايد طرفى نقيض فى الوادى . فلا يهتم جونيوس بتحسين أو حتى صيانة مزرعته ، ويعتبره كثيرون مهملا أو متخلفا . فى حين يبدو فى نظرآخرين غير مكترث بمصلحة ابنه ، كما أن جونيوس فقير أيضا . أما جون وايتسايد الغنى فهو الزعيم المعترف به فى المجتمع وهو الذى يضفى تاريخ أسرته ومركزها على الوادى مغزى وشخصيته .. ويعتبر منزل وايتسايد رمز الزعامة والتقاليد وكلا الرجلين متعلمان تبدو عليهما السعادة أو الرضا . فيقيس مالبتى الحياة البسيطة الهادئة بتركيز على الخيال والتعبير الفردى ، ويموت أطفاله الا واحدا يكبر ويتسم بنفس الصفات والاحتياجات . ويحب

وايتساید الكتب أيضا لأنها تحدثه عن الأزمنة الكلاسيكية وأنشطة الأسرة ويرغب وايتسايد فى تخليد سلالة الاسرة ولكن ليس لديه سوى طفل واحد وهو لا يشارك أباه فى اهتماماته كما أنه يجد مستقبله فى المدينة • ولا تستطيع طريقة مالبتى غير المثمرة فى الحياة ، ولا تقاليد وايتسايد المبجلة وزعامته أن تبقى بعد نفوذ الوادى وآل مونرو ، ولابد أن يكون لقيم ولياقة الطبقة المتوسطة ضحاياها •

وكان أول عمل لشتاينبك Tortilla Flat ظهر فى عام ١٩٣٥ أثبت وجوده فى بلاده • وكان النص قد قوبل بالرفض من الناشرين الذين اعتبروه مجموعة قصص مسلية ليس لها هدف واضح ولا ارتباط ، ولا تروق كثيرا للقراء خلال فترة الكساد • ولكن الناشرين كانوا على خطأ فلم تلبث Tortilla Flat أن ظهرت بسرعة على قائمة أحسن الكتب توزيعا فى البلاد ، ووفرت لشتاينبك الاستقلال المادى • الا أن تعليقات النقاد بأن القصة ينقصها ترابط هام أثارت قلق شتاينبك لأنه كان قد أورد مطابقات بين المغامرات فى Tortilla Flat وفى Morte d'Arthur لمالورى حتى يحقق هذا الترابط • وقد رأى فيما بعد أن يواجه النقاد ويوضح الهدف والبناء فى الكتاب فأضاف الى الطبعة الثانية مقدمة تبدأ هكذا :

« هذه هى قصة دانى وأصدقاء دانى ومنزل دانى ، وكيف أصبح هؤلاء الثلاثة شيئا واحدا • لم يكن منزل دانى مختلفا عن المائدة المستديرة ، ولم يكن أصدقاء دانى مختلفين عن فرسان المائدة المسديرة • وتروى هذه القصة كيف خرج هذا الفريق الى الوجود، وكيف ازدهر ونما ليكون منظمة جميلة وحكيمة » •

وتشمل المقدمة أيضا وصفا هاما لمونتيرى وتعريفا للمهاجرين الأجانب • وجنسيات معظم شخصيات الرواية مثل رجل فيه خليط من

الدماء الأسبانية والهندية والمكسيكية والقوقازية · والكلمة المرادفة لها اليوم هى Chicano .

وتقدم هذه المواد المختلفة بتركيز درامى أكبر بكثير مما يبدو فى The Pastures of Heaven ونجد التركيز دائما على دانى وأصدقائه وأنشطتهم · فتبدأ Tortilla Flat بعودة دانى من الحرب العالمية الأولى ليكتشف أنه يملك المنزلين فى Tortilla Flat والجزء الأعلى من مونتيرى ، ولكنه لا يعبأ بالمسئولية فيلهو ويعبث ويسجن ويهرب ويقابل صديقه القديم بيلون الذى يرضى بأن يشارك فى المسئولية ذ ويدفع ايجارا أيضا · الا أنه لا ينفذ وعده فيحاول أن يريح ضميره ويخصص جزءا من أحد المنزلين لبابلو وجيزوز ماريا اللذين يوافقان أيضا على دفع ايجار ولكنهما لا يفعلان أبدا · وفى المنزلين تقام حفلات مرحة كثيرة · وبعد احتراق منزل بيلون أثناء حفل ماجن ينتقل الجميع ليعيشوا مع دانى · وبعد فترة يقبل الأصدقاء فى مجموعتهم القرصان وكلابه الخمس ، وكل مدخراته وهى مائتى دولار كلها أرباع دولار ، ويوافق الجميع على عدم المساس بتلك المدخرات · وعندما يسرق بورتاجى أرباعا قليلة يضرب ضربا مبرحا · وبعد عدة أسابيع من حياة رتيبة يختفى دانى ويهيم على وجهه ويسجن ، وبعد الافراج عنه يقام له حفل كبير يأتى فيه بأعمال أسطورية · ثم يخرج مهرولا فى الظلام ويسقط فى الهوة السحيقة ويلقى حتفه ويحضر الكثيرون جنازته · ولكن الأصدقاء الذين لا يملكون ملابس مناسبة لا يستطيعون حضورها · وبعد ذلك ينصرفون ولا ترى « اثنين منهم معا » !

ان Tortilla Flat كما يوحي ملخصها يمكن أن تعتبر رواية فى حلقات تدور حول التناقض بين أسلوب حياة دانى وأصدقائه ، وبين مقاييس الطبقة المتوسطة فى مونتيرى · ويظهر

فى Tortilla Flat أيضا أوصاف المشردين الظـــرفاء المصريين · فهناك دانى وأصدقاؤه اشقياء الثلاثينات خفيفو الظل الذين تثير قصصهم وأسفارهم فى أنحاء المدينة التعليقات عليهم وعلى مهاجرين آخرين وعلى أشخاص يعيشون جنوب الفـــلات Flat أو المسكن ·

وتحت مثل هذه الأنماط يكمن بنـــاء لفظى ومجازى يفسره فونتنروز بطريقة رائعة ، وهذا البناء هو الذى يكون أكبر رباط منسق فى Tortilla Flat ، وهو نتاج المطابقة بين مالورى وبين المواد المشار اليها فى المقدمة ، ويظهر على السطح بوضوح أكثر فى الفصول ، وغالبا ما تحمل عناوين الفصول وأوصاف الشخصيات والدوار تشابها وثيقا ولو أنه ساخر بالمواد ·

ان Morte d'Arthur قصة تاريخية ولذلك يكفى ذكر نقاط هامة قليلة هنا لتوضيح المطابقات أو المشابهات ·· فى بداية المغامرات يتلقى الملك آرثر من جينيفير هدية زفاف عبارة عن مائة فارس ومائدة مستديرة ، وسرعان ما يتضامن فرسان المائدة المستديرة فى قتال الغزاة الأعداء والدول الأجنبية ، وفى انقاذ الاسرى والمعتقلين· ان أعظم فارس هو « لونسيلوت » المفضل عند الملكة جينيفير · ويذهب « لونسيلوت » وفرسان آخرون للبحث عن الوعاء المقدس · ويخلف « جالاهاد » أباه « لونسيلوت » ويترك « لونسيلوت » مدينة « كاميلوت » من أجل حبه لجينيفير ويعود ليثأر لموت الملك آرثر · ويكشف شرح فونتينبروز للمطابقات الكثيرة بين مواد شتاينبك ومالورى عن عمق وارتباط شامل لم يكن معروفا من قبل ·· على أنه ينبغى ألا تؤخذ المطابقات بطريقة حرفية لأن أحداث القصة تقع فى كاليفورنيا فى الثلاثينات ، والمكان هو الشقة عادة ، وأوصاف منازل دانى المتهاوية ، والأشجار التى لا تكبر ، وأكوام الرماد والقمامة

والمنازل والساحات الأخرى فى أماكن أخرى تنقل بوضوح المستوى الاقتصـــادى ، فالأوقات عصـــيبة • ولكن غرض شــــتاينبك فى Tortilla Flat أعم منه فى The Pastures of Heaven ولذلك يبدو أسلوبه النثرى أكثر تعقيدا ، والأسلوب ليس واقعيا روائيا فقط ، وانما شعرى ساخر رقيق أيضا ، ويتضح هذا فى وصف منزل دانى الثانى وهو أفضل المنزلين فيقول المؤلف :

« وقف دانى وبيلون أمام السور الذى بلا طلاء وتطلعا باعجاب الى العقار ، وهو منزل واطىء مغطى ببياض قديم ، ونوافذه بلا ستائر ، ولكن وردة كبيرة كانت تعلو سقف المدخل ، كما كانت أزهار الخبيزة بين الأعشاب فى الفناء الأمامى » •

والملاحظ أن التفاصيل الدقيقة المؤثرة تخلق شعورا بأن مستوى الحياة على الكفاف ــ السور المتسخ والمنزل العادى والنـــوافذ العادية ــ كما توحى بألوان زاهية وجمال وحتى أمل • أما أوصاف الغرفة الرئيسية بموقدها ومقاعدها المحطمة ونتيجتها القديمة لعام ١٩٠٦ والزهور الورق وحبال الفلفل الأحمر والثوم فتثير السخرية والضحك ، كذلك لأن دانى وبيلون يعجبان بكل هذا أيضا •

ويعتبر أسلوب شتاينبك فى Tortilla Flat أروع نثر كتبه قبل Of Mice and Men • وتعتبر نبرات التهكم هامة جدا لخلق القصص التى تقلد البطولة فى الثلاثينات • اذ أن التصوير الساخر والمضحك للشخصيات والأنشطة لا يمكن أن يثير الاعجاب أو يوصف بالنبل • وهكذا تجد كل منزل ببابه المحطم ووردة الكاستيل فوقه مكانا لأحلام وحكايات كبيرة وحقائق مشوشة • وتتباهى الشخصيات بأعمالها الجريئة العظيمة رغم أن تصرفاتها تافهة أو مضحكة • ان المعارك ضد الأفاعى والسادة الثائرين تصبح فى Tortilla Flat

غارات على عشة دجاج مسز مورالز المجاورة ، أو هجوما لنهب وسلب الخمر والطعام فى أزقة مونتيرى • أما البحث الطويل فى الغابة عن الوعاء المقدس فانه يقود بيلون الواقعى أو « كونسيلوت » الى مسطرة أمريكية مدفونة ! والملاحظ أن الملك آرثر نفسه أودانى له ساقان مقوستان ، وفرسانه لا يهتمون بشىء غير النوم ورواية الحكايات والقتال والشراب • كما أنهم يطاردون النساء أيضا أو يشرفون على خدمتهن ! •

أما نظيرات الفتيات الجميلات فى حكايات أرثر فهن اما نسوة نحيلات مثل المرأة الشيطانة سويتس راميرى التى تهز أردافهـــا وتغير عشاقها ، أو مثل تبريزينا التى يمكن الوصول اليها دائما وقد تكون جينيفير •• ويستجيب دانى وبيلون أيضا لمفاتن مسز توريللى التى تقدم لهما العشاء ويقبلانها خلسة عندما يكون زوجها غائبا !

وبينما ترتبط موادالبطولة المقلدة والحقيقية فى Tortilla Flat يؤدى تعاطف شتاينبك مع الشخصيات المعدمة وحياتها البســيطة السوية الى بعض الازدواج المتناقض فى المعالجة • وقد أشار النقاد الى أن صور البطولة الساخرة أو البطولة المقلدة والحياة الريفية الطيبة البسيطة لا تمتزج ببعضها ، وهذه نقطة معقدة وليست مقنعة بالضرورة ، ولكنها واردة وجديرة بايضاح مختصر ، وهذا ممكن بذكر صورة هامة فى قصص شتاينبك وهى فكرة « رجل الفريق » وهو شخصية فى مجموعة يكتسب صفات المجموعة ويفقد صفاته الفردية •

وعندما يعمل رجال الفريق سويا أو يفعلون هذا نظريا يصبح الفريق أو المجموع فى الحقيقة كيانا ويتصرف بطرق الفرد المبسطة•

ويظهـــــر أول استخدام هام لهذه الفكرة فى Tortilla Flat فتقرأ فى المقدمة أن المهاجرين الأجانب أجزاء من وحدة ، وأنهم يعملون سويا على أساس الصداقة والولاء والالتزام « بأنهم هم والمنزل يصبحون شيئا واحدا » • وفى بعض الأحيـــان يتصرف أعضاء الفريق كشخص واحد عندما يواجه الفريق تهديدا أو يعمل الجميع معا لتحقيق غاية مشتركة • وهم يعملون بمهارة وهدوء تحت اشراف بيلون فيسرقون أشياء لطيفة لمكهم ، وبنفس المهارة ولكن بهدوء أقل ينقضون على بورتاجى جو عندما ينكص قسم الفريق •

على أن صداقة وولاء الفريق ليست « جميلة وحكيمة » الا فى بعض الحالات القليلة • والتزامات الأعضاء ليست موجهة لبعضهم بعضا أو للفريق • **فجيتروز ماريا** فقط هو الذى يبدى استعداده دائما لمساعدة الغريب ، كما أن القرصـــان العطوف يبدى تقديرا حقيقيا للآخرين •

وعلى عكس ذلك تبدو الشخصيتان الرئيسيتان وهما دانى وبيلون عاجزين عن عمل أى شىء لأى شخص آخر أو للفريق الا اذا واجها عددا أكثر منهما ، أو كان عملهما لمصلحتهما الخاصة • فكل منهما فردى أساسا ، ولا يوجد من يفوق بابلو وبورتاجى جو فى التكتيكات التى تخدم مصلحتهما الشخصية • ويسخر الكاتب من مثل هذه التكتيكات •

عموما لا يتعارض التعاطف مع الريف والسخرية من البطولة المزيفة لأن شتاينبك ينجح الى حد ما فى خلق شخصيات تتسم بنقاط قوة وضعف ، وفى نقد كل مجالات أو مقاييس الحياة فى مونتيرى وليس فقط مقاييس الحياة فى الشقة •

وتتكون مدينة مونتيرى كما يرد وصفها فى المقدمة من جزأين: الجزأ **السفلى** حيث يعيش « أمريكيون وايطاليون وصائدو أسماك »، والجزء **العلوى** حيث « تختلط الغابة والمدينة » ويعيش المهاجرون الأجانب · ويفصل الوادى السحيق بين هذين الجزأين فيبدو كل منهما مختلفا عن الآخر اختلاف الليل عن النهار · ففى الجزء العلوى أو الشقة Flat نجد الشوارع غير مرصوفة وبلا مصابيح ، ويعيش معظم الناس فى « المنازل الخشبية القديمة المبنية فى ساحات مليئة بالعشب · وتوجد الأعمال وصناعات المدينة فى النصف الجنوبى المزدحم فيضم فندق ديل مونيكو ، وفندق سان كارلوس ، وأجزاخانة بالاس ، ودكان الترزى هيو ماشادو ، وشركة بالادين ، والغرفة التجارية فى شارع الفارادو ، وشركة استثمار سيمون ، وجواهرجى وشركة لوان · وبالنسبة لأماكن الترفيه يستطيع الأثرياء الذهاب الى مسرح مونتيرى وقاعة رقص الـ باسكو أو الى أى عدد من الحانات وقاعات الرقص وبيوت الدعارة · ولشراء الحاجيـــات الروتينية توجد متاجر مختلفة منها متجر وولوورث دايم ومتجر ناشونال دولار ·

ورغم أن الوادى السحيق فى النص الأسطورى قد يفصل مملكة الملك آرثر عن الدول المعادية أو الخطرة ، الا أنه لا يعوق أى أحد عن الذهاب الى الشمال أو الجنوب · ويعبر بعض المهاجرين الأجانب الوادى كل يوم بداع وبدون داع · كما أن الوادى لا يشكل عقبات مادية أو اقتصادية بالنسبة لنفوذ أى جزء أو آخر من مونتيرى ·

ورغم وجود أعمـــــال قليلة فى الــ Flat يقوم دانى وأصدقاؤه بأعمالهم بمهارة فائقة ، كما أن توريللى لا يخسر أموالا فى عمله فى دكان بيع الخمر والمشروبات المحرمة ·

والحياة الريفية فى ذلك الوقت ليست ريفية كما تبدو ٠ وبيان شتاينبك فى المقدمة بأن « المهاجرين بعيدون عن النزعة التجارية متحررون من أنظمة العمل الأمريكية » ٠٠ هذا البيان يبدو ساخرا بعض الشيء على الأقل ٠ فبينما يفضل دانى وأصدقاؤه الحياة البسيطة الطيبة ، الا أنهم ليسوا مستعدين للعمل أو المعاناة من أجلها ٠ وفى محاولتهم تجنب مثل هذه المصائب والحصول على أهم ما فى الحياة الطيبة من خمر ونساء وطعام يساومون ويسرقون بكل همة ، وفى كل مكان فى مونتيرى ٠ كما يشتركون فى عمليات سرقة شأنهم فى ذلك شأن من يفوقونهم اقتصاديا ويفسرونها بمبررات تبدو مقنعة ! ٠ فعندما يجد دانى برميل مسامير خاصا بشركة سنترال سابلاى يبيع المسامير لشركة وسترن سابلاى بثلاثة دولارات ٠ وفى محاولة لكسب ود دولوريس رامير يشترى دانى بعد مساومة قليلة مكنسة كهربائية بدولارين من متجر سيمون وهى بدون محرك ، وكانت مسعرة أصلا بـ ١٤ دولارا ٠

وفى بعض الأحيان يتصرف فرسان المائدة المستديرة بأقل قدر من الأنانية كما يحدث عندما يسرقون أطعمة من أجل تيريزينا وأطفالها ٠ وعندما يعرفون أن الأطعمة فاسدة يحاولون بخبث أن يحصلوا لهم على البقول التى تكسبهم صحة ٠

وتخدم منازل دانى التى تفيد أيضا فى ربط وتعريف الفريق فى تقديم السخريات المعقدة التى يستعملها شتاينبك فى معالجة القصة ، فيرحب دانى بالمركز والتقدير الذى تضفية ملكية الطبقة المتوسطة ، ولكنه يضيق بالمتاعب التى تصحب هذا والتى تهدد حريته ٠ ويطلب من أصدقائه أن يدفعوا ايجارا ولكنه لا يلبث أن يقبل اقامتهم مجانا ، وشيئا فشيئا يقبل هذا الوضع ولا يعترض عليه بكلمة ، فالايجارات ومثل تلك المتطلبات تعوق حرية الشخص على

أية حال · والشخصيات من الطبقة المتوسطة الذين لا نراهم فى الجزء السفلى من مونتيرى يعملون أيضا ويدفعون ايجارات بانتظـام ، ويستمتعون بحرية قليلة · فى حين أن دانى وأصـــدقاءه الذين « يتهربون » من الوعود ، ولا يعملون الا نادرا يبدون أحرارا مثل الطيور فى الغابة ·· على الأقل يبدون كذلك حتى يحاولوا أن يتصرفوا كأصحاب عقار ومستأجرين ، وهم يتمنون أن يكونوا من هذا النوع أو ذاك أو من كليهما لو أن قيمة الايجار تكفى لشراء الخمر والنساء ، وتكفل حياة رغدة بوجه عام · ولكن طالما أن قيمة الايجار لا تكفى ، وطالما أنهم يفكرون بطريقة عملية ، ويعرفون أن دانى لن يصر على دفع ايجار ، فانهم يبقون فى المنزل دون أن يدفعوا سنتا · وعندما تزداد متاعب الملكية يبيع دانى المنزل الباقى لتوريللى ورغم أن هذه مناورة طبقة متوسطة مقبولة ، الا أنها تقابل بالرفض من المهاجرين الآخرين الذين يرغبون فى امتيازات التأجير فيحاولون ازالة أدلة البيع التى ينكرها دانى على أية حال · وهكذا تسير الأمور فى فلات كما كانت من قبل حتى يموت دانى ·

ويستخدم الفصل الأخير مثل المقـــدمة فى صياغة مواد Tortilla Flat لربط النقد والاطراء ، وتقديم المهاجرين فى اطار يضم كل سكان مدينة كاليفورنيا · وفى فترة الحداد يجد المهاجرون أنفسهم مرة أخرى منغمسين فى تقاليد وعرف الطبقـــة الوسطى · ومرة أخرى يصبحون أوغادا متعاطفين وطفيليين مسلين اجتماعيين يخططون ليعبروا بطريقتهم الخاصـــة عن احترامهم لزعيمهم الراحل · على أن تقاليد وعرف الطبقة الوسطى تفرض عليهم قيودا · « تصوروا أن نذهب الى الجنازة بدون تلميع السيارة أولا ·· ! تصوروا أن نقف أمام المقبرة دون أن نكون مرتدين أفضل الحلل القاتمة ! » · وأصدقاء دانى لا يملكون سيارات ولا حللا

جديدة أو مستعملة · كما أنه لا يوجد وقت لسرقة حلل ·· ومن الذى يقرض حلة فى وقت كهذا ؟ · لا بد أن يذهبوا كما هم ! ·

وهذا هو ما يفعلونه ، فيقفون فى الشـــارع من الكنيسة ، ويرقبون من الحشائش قريبا من المقبرة ، وفى النهـــاية يؤجرون المنزل ·· ويحترق المنزل رمز الصداقة المقدسة ·· هذا المنزل الطيب الذى شهد حفلات ومنازعات ·· منزل الحب والراحة ··، لا يحاولون انقاذ المنزل لأنهم يفضلون أن يروه « يموت كما مات دانى فى هجمه يائسة رائعة أخيرة على الآلهة » ·

ونلاحظ أن صبية دانى رومانطيقيون الا عندما يريدون أن يكونوا شيئا آخر وغالبا ما يريدون · والصورة النهائية تتضمن نقدا وتعاطفا فى نفس الوقت · فهم سفلة متطفلون وأندال يخـــربون الممتلكات الخاصة ، ويتصرفون بطريقة أنانية ، ولكن ذلك ليس خطأ فى حد ذاته لأنهم لا يريدون أن تؤول الممتلكات الى أيد غير أمينة ، ولا يريدون أن يفعلوا كما يفعل من يفوقونهم اقتصاديا ·· فيسيرون ناحية الوادى السحيق ·· الغابة ·· أو أى مكان آخر وحدهم ·

صراعات وأبحاث فى الثلاثينات

اتضح التنوع الرائع لشتاينك فى بداية الثلاثينات بنشر عدة قصص من The Pastures of Heaven, The Long Valley Tortilla Flat .. وبينما كانت كارول زوجته تساعد الأسرة بمبالغ ضيئلة من عملها ككاتبة على الآلة الكاتبة وسكرتيرة ومراجعة، استمر شتاينبك يعمل فى تأليف قصص أخرى بخلفية كاليفورنيا،ولكن بموضوعات وصيغ ومواد مختلفة .

لقد كانت قصة In Dubious Battle التى صدرت فى ١٩٣٦ معدة تقريبا فى أوائل ١٩٣٥ . وصور فيها حياة كاليفورنية مختلفة تماما عن حياة المهاجرين الأجانب فى مونتيرى الهادئة فى تورتيلا فلات . كما ظهر أيضـــا فى القصة الجديدة تغييرات غير متوقعة فى الصيغة .. ويعتبر أفضل عمل لشتاينك فى تلك السنوات العشرة باستنثناء The Grapes of Wrath هـــــو Of Mice and Men الذى صدر فى ١٩٣٧ وأيضا فى عام ١٩٣٥ فى مرحلة التألـــيف .. ويتناول شـــتاينبك فى قصتى In Dubious Battle و Of Mice and Men مشاكل اقتصادية واجتماعية تؤثر على أشخاص فى كاليفونيا وفى مناطق أخرى أثناء سنوات الكساد .

والمشهد الزراعى فى كاليفورنيا وفى وادى ساليناس بوجه خاص فى الثلاثينات يختلف تماما كما ذكر فريمان شامينى عن تلك المناطق الريفية فى أماكن أخرى ، لأن مزراع كاليفورنيا كانت مزارع جماعية كبيرة ، وكانت أشبه « بمصانع زراعية » يملكها مديرون كبار وبنوك كبيرة ، ويعمل فيها مئات من العمال بينهم عدد كبير من المهاجرين ، وكانت المزارع التى تبلغ مساحتها بضع مئات من الأفدنة

تعتبر قليلة نسبيا ٠ ورغم أن انتاج المزارع الكبيرة لم يقل كثيرا فى الثلاثينات ، الا أن الأجور القليلة لعمال جنى الفاكهة والخضر أدت الى اضطرابات اقتصادية ٠ ففى شهر سبتمر من عام ١٩٣٦ أضرب آلاف من عمال الجنى فى وادى ساليناس بسبب قلة الأجور ، وبسرعة زادت الأوضاع توترا وخطورة عندما قرر المسئولون فى ساليناس تجنيد كل الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين ، وعلقوا الحقوق المدنية فترة ، وأحضروا ضابط جيش احتياطيا ليقود الحرس ضد المتظـــــاهرين ٠ وكانت النتيجة أنهم عمقوا الاضرابات خلال شهر ، وقد قام شتاينبك بتغطية هذا الحادث القبيح لصحيفة سان فرانسسكو نيوز ٠ وفى هذه الأثناء كانت قصـــــة In Dubious Battle على وشك الخروج من المطبعة وتدور أحداثها حول اضرابات أخرى ٠

وترجع تجارب شتاينبك الخاصة مع مزارع كاليفورنيا الى أصياف المدرسة الثانوية عندما عمل فى مزارع بنجر على طول وادى ساليناس ، والى الشهور التى قضاها بعيدا عن ستانفورد عندما كان عاملا ومراقب عمال فى مزرعة وبللوجبى ٠ وفى شتاء ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ قبل كتابة In Dubious Battle تعلم شتاينبك كثيرا عن الاضرابات وتكتيكات العمل من منظمى عمــــــل لاجئين « وكانوا ايطاليين شيوعيين تلقوا تدريبهم فى الحقول وليس فى الصالونات » ، وأيضا من مشرف شيوعى على منطقة فى ذلك الوقت٠ فكانت المعلومات من هذه المصادر والمعرفة باضرابات كاليفورنيــا هى التى وضعت أساس التطورات فى الرواية ٠٠ لم يكن شتاينبك شيوعيا وفى ذلك الحين كان فى الواقع ينتقد أفكارا وأفعالا شيوعية مختلفة كما هو واضح فى In Dubious Battle ٠ ولكنه لم يكن أقل من هيمنجواى ، ولعله كان أكثر من معظم الكتاب الآخرين فى الثلاثينات تصميما على سرد الأمور كما هى على حقيقتها ٠

تبـــدأ In Dubious Battle بمشاهد لجيم فولان وحده في غرفة فندق متواضع ، وبعد ذلك مع عدد من الشيوعيين ، ويأخذ الزعيم ماك جيم الى وادى تورجاس حيث كان عمال الفاكهة مضربين بسبب قلة أجورهم ، ويرغب ماك أن يدرب الشاب وأن يؤثر أيضا على العمال ، فيساعد فى عملية ولادة حفيد لندن وهو زعيم اضراب فى خيمة • وفيما بعد يخطط ماك وجيم ولندن وداكين وهو زعيم آخر اضرابا ضد سياسات اتحاد مزارعى الفاكهة فى وادى تورجاس ويتولى ماك وجيم اقناع مزارع اسمه توم أندرسون بالسماح لعدد يتفاوت بين ٥٠٠ ، ٢٠٠٠ من المضربين ليعسكروا على أرضه •

ويتعلم جيم الكثير وهو ماض فى طريقه ويقابل بيرتون وهو رجل شيوعى مسئول من الرعاية الصحية والطبية فى المعسكر •• وبسرعة يتحدى ممثلو اتحاد المزارعين ماك ولندن والرجال فى مواجهة ساخنة •• وبعد قليل ينشب قتال شرس فى المدينة ويقتل فيه شيوعى قديم اسمه جوى • ويستخدم ماك قتل الرجل لاثارة الكراهية ، ويجرح كثير من المضربين فى صدام عنيف فى بستان ، ويصاب جيم برصاصة فى الكتف •

وينتشر الغضب والكره على كلا الجـانبين ويحـرق جرن أندرسون ، ويهدم منزل أحد المزارعين ، ويصبح جيم زعيما ، ولكنه يلقى مصرعه فى كمين بعد اختفاء دوك • وفى المشهد الأخير يتحدث ماك الى المضربين الثائرين وجثة جيم ملقاة أمامه •

ان شتاينبك لم يذكر فى أعماله السابقة الا القليل ليعد قراء الثلاثينيـــــات للراديكالية والعنف الســـــــافر الذى ظهر فى In Dubious Battle • فالنزال والمعارك فى Cup of Gold تغرق فى وهج روما نطيفى • كما توجد حوادث قتل وهجوم قليلة

فى The Pastures of Heaven و The Long Valley
وتنشب مشاجرات وقتال عصـــــابات فى Tortilla Flat
على أن كل هذه الحوادث محدودة ولا تقارن بنسبة حوادث القتل
والضرب والمواجهات العنيفة الموجودة فى In Dubious Battle
أما فى The Pastures of Heaven وفى Tortilla Flat
فان الكاتب يسخر من الملكية الخاصة والعمل الشاق والأرباح ،
ولكن لا يوجد راديكاليون فى الوادى الهادىء ، أو على أية ناحية
من الوادى فى مونتيرى • كما أن القصة القصيرة The Raid
تتنبأ فقط بالعنف والراديكالية التى تظهر فيما بعد •

ان مثل هذه المواد الجديدة لم تكن مختلفة فقط ولكنها أثارت جدالا أيضا •• فحتى فى فترة الكساد عندما كانت روايات الاضراب شائعة اعترض بعض القراء على الأوصاف التفصيلية للعنف وسفك الدماء فى In Dubious Battle . وقد كتب الناقد ماكسويل جيزمار فى تعليقه على هذه الأمور :« يبدو أن العنف فى حد ذاته له جاذبية تلقائية عند شتاينبك ، ويستخدم هـــذا العنف للتأثير أكثر منه للاصلاح » • وهذا ليس صحيحا كما سنرى •• وكانت هنـــاك اعتراضات أيضا على الأفكار والتكتيكات الراديكالية فى الرواية • وقبل وبعد النشر أعرب الناشران كوفيكى وفريدى عن شكوكهما بالنسبة لضم مثل هذه المواد •• وقد انتقد **قارىء تكتيكات وايدلوجية** الراديكاليين واقترح تصحيحات وتعديلات • الا أن هذه الانتقادات لم تلق اهتماما من الناشر أو الكاتب • ومثل هذه المواقف تثير السخرية من حيث أن شتاينبك كان فى نظر الشيوعيين فى الثلاثينات « شخصا لا يمكن الاعتماد عليه سياسيا » • وقصصه تتناول الراديكاليين بنفس القسوة التى تتناول بها المزارعين •

وتختلف In Dubious Battle عن الأعمال السابقة فى ناحية أخرى ٠٠ ففى البناء العام نجد أنها ليست مجرد قصص مثل The Long Valley ٠٠ وليست رواية على حلقـــــات مثل The Pastures of Heaven ٠٠ أو رواية كوميدية مزخرفة بدقة مثـــــل Tortilla Flat . ٠ الا أن In Dubious Batle تشـــــبه Tortilla Flat فى استخدام المواد الأسطورية العظيمة وبينها Morte d'Arthur لمالورى وخاصة البطل بارسيفال الذى يطابق جيم فى خلفيته العائلية وشخصيته ٠ وأهم من ذلك فى ولائه العميق للمائدة المستديرة وتمسكه بعفته ٠

ومع ذلك فان التأثير الأسطورى المسيطر على القصة هو الفردوس المفقود لملتون ، فهو الذى يقدم المطابقات الســـاخرة فى الشخصيات والأحداث فى In Dubious Battle كما يقـول فونتينروز فى تفسيره ٠ ويمكن اعتبـــــار ماك وجيم شخصيتين شيطانيتين تقودان الحزب والعمال ضد المزارعين بطريقة تشـــبه قيادة الشيطان للملائكة المتمردين ضد الله كما أن الحدث الرئيسى نفسه وأحداثا كثيرة وشخصيات صغرى وأسماء وصيغا للحديث تكتسب مزيدا من الأهمية والوحدة من خلال ارتباطها بمواد فى الفردوس المفقود ٠ والأساس الأسطورى أيضا يزيد المغزى ثراء واتســـــاعا ٠

وبينما يدرك ماك وجيم أن قراراتهما وأفعالهما هما وخصومهما تثير انعكاسات وردود فعل مداها أبعد بكثير من حدود كاليفورنيـا – فى نظر المؤلف على الأقل – ينغمس كلا الطـــــرفين فى معركة مريبـــــة "dubious battle"

ان التهكمات والمطابقات الملتوية تساعد على تحديد المعنى والبناء فى الرواية ، الا أنها تبدو أقل أهميــــة من مواد وصيغ اضطرابات العمال الموجودة بكثرة وصراحة فى سياق القصة بحيث تجعلها تبدو طبيعية وواقعية بالدرجة الأولى •

وتعتبر In Dubious Battle قصة بروليتارية تتنـــاول أعضاء من الطبقة العاملة ، وتجارب الطبقة العاملة ، والنزاعات التى تنشب بين الأثرياء والمعدمين ، وكلها عناصر ضرورية وهامة فى القصة البروليتــــــارية أو الراديكالية • ورغم كل ذلك فان In Dubious Battle ليست قصة بروليتارية ولا راديكالية اذا أردنا الدقة ، لأن المهم فى الرواية البروليتارية أو الراديكالية كما يقول وولتر رايداوت هو الدعوة للايدلوجية الماركسية ، وهو عنصر غير موجود فى In Dubious Battle • الا أن الرواية لها قاعدة بروليتارية من حيث أن المعتقدات والتصرفات الماركسية وسائل هامة فى تطوير القصة والشخصية والموضوع • ويشك النقاد أيضا فى أن In Dubious Battle قصة اضرابات طالما أن التركيز يبدو على سيكلوجية المضربين وغير المضربين أكثر منه على الاضراب نفسه• وهذه النقطة أيضا موضع جدال طالما أن السيكلوجية تمس دائما بعض نواحى الاضراب ، وأن معظم الفصول تتناول بطريقة مباشرة أو غير مبـــاشرة مواجهات بين مضربين وغير مضربين فى وادى تورجاس • ويمكن اعتبار رواية شتاينبك فريدة من نوعها من حيث أنها استطاعت الجمع بين التركيز على العوامل الخارجية والداخلية دون أن تبالغ فى أهمية المظاهر الخارجية والعنف بوجه خاص •

ان صياغة المواد المختلفـــة لـ In Dubious Battle هو الموضوع نفسه وهو ليس موضوعا بالمعنى المبسط أو الآلى ، ولكنه موضوع بمعنى أنه يدمج الحدث اللفظى من ناحية ، والخطط

الكامنة وراء ذلك الحدث من ناحية أخرى · وقد يكون لهذه الأسباب والدوافع أصولها المحيطة ، وهى فى هذه الحالة الأوضاع فى وادى تورجاس والاضراب نفسه ومواقف الشخصيات وايمانهم بالأفكار طويلة المدى ·

وموضوع الرواية ليس له صلابة موضوعات قصص جيمس ولا تعقيد موضوعات قصص فولكنر ولكنه مترابط بطريقة مقنعة كما أن الأحداث تسير بطريقة حتمية ومرجحة · والعامل المهم لترابط ووحدة الرواية هو وجود أفكار جوهرية وهى عادة سياسية أو اقتصادية تدعو اليها الشخصيات الكبيرة وبعض الشخصيات الصغيرة · واذا كانت In Dubious Battle ليست قصة أفكار بروليتارية ، فانها قصة اضراب فى فترة الكساد بعناصر بروليتارية تتأثر بقوة بمعتقدات وأفكار معينة ·· ويمكن ذكر بعض نواحى هذا الرأى عن الرواية بالتعليق على تسلسل الفصول ·

فى الفصول الافتتاحية مثلا لا توجد مناقشات فكرية أو جدل مثير ، ورغم ذلك يقوم جيم وماك بتوضيح عدة أفكار رئيسية فى مشاهد أولى · واذا بجيم أول من يناقش علاقة الغضب والعنف وهى علاقة هامة وتستمر فى سياق القصة ·· لقد نبع شعوره هو نفسه بالغضب من حياة منزلية تعيسة غير آمنة ، ومن متاعب أعقبت هذا، وعندما يشعر جيم أنه « ميت » وبلا هدف يبحث عن أجوبة أو توجيهات فى كتب أفلاطون وهيرودوت وكانت وغيرهم بما فيهم ادوارد بيللامى · ورغم أن جيم ليس مثقفا ولا مفكرا شيوعيا الا أنه ذكى ومتأمل ودارس فى نواح كثيرة · ويعلم من مسئول فى الحزب اسمه هارى نلسون بنبأ العقوبتين اللتين أصدرهما الحزب ، ويستمع على الأقل الى شرح جوى المبدئى للأيدلوجية الرأسمالية ·

أما ماك الذى يعرب عن احتقاره للأفكار فانه يؤكد رغم ذلك أهمية القليل منها مثل قيمة التجارب ، فيقول ان الكتب لا تساعد كثيرا ، ومثل ضرورة العنف فيقول ان القتال يؤدى الى تضـــامن المضربين ، وأن موت شخص يمكن أن يثير غضبهم ، ومثل ضرورة الأخذ بالنظرة طويلة المدى والحكم الموضوعى ٠

وتظهر النقطتان الأخيرتان ثانيا فى مناقشات دوك ٠ وخلال عدة أيام يثبت جيم أنه يفهم الأفكار والتجارب العملية بسرعة ٠ وتســـتمر العلاقة بين الأســتاذ والتلميذ فى الفصـــل الرابع والخامس والسادس والسابع بينما يشرح ماك الأفكار بالأعمال ٠٠ فتظهر نزعة البراجماتية فى وادى تورجاس عندما يســاعد ليزا فى ولادة طفلها ٠ وأحيانا يأتى العمل بعد الفكرة أو النظرية كما يوضح ماك فى الحديث مع جيم بعد ذلك ٠

ــ « لقد قمت بعمل رائع » ٠٠ هكذا قال جيم ٠

ــ حسنا بحق المسيح كان لابد من ذلك ٠٠ كان لابد من أن نستخدم أية آلة أمامنا ٠٠ كانت فرصة طيبة ولابد من انتهازها ٠٠ كان لابد أن نساعد المرأة بأية وسيلة ٠٠ لابد أن نستعمل أى شىء » ٠

ورغم أن ماك يبدو فظا ، الا أنه ليس كذلك فى جوهره كما أنه لا يريد أن يكون فظا ، ولكن الغاية تبرر الوسيلة ٠ ولذلك يجب التضحية بفرد فى سبيل تحقيق الغاية ٠٠ وعلى هذا الأساس يعتقد ماك أن هناك قانونا واحدا فقط وهو استعمل أى شىء أمامك ٠

وأثناء فترة التلمذة هذه يتعلم جيم شيئا من القوانين المترابطة:

الزعامة فى الحقل يجب أن تأتى من الرجال وفى هذه الحالة من « لندن أساسا ·· يمكن لعمال أن يتعلموا وهم يحبون العمل مع بعضهم ·· ويتضح فيما بعد أن مثل هذه الأفكار تترتب عليها نتائج · فبعد أن يستمع أندرسون الى شرح ماك عن اقتصاديات المدينة يوافق على أن يعسكر العمال فى أرضه · ويتأكد الدرس مرة أخرى فى المعسكر عندما يوضح ماك ولو بطريقة مبسطة أهمية المواجهة فى تورجاس ويقول : ان طرفا يملك المال والسلاح والطرف الآخر لا يملك شيئا ·· وعندما يتلقى الطرفان فى الفصل السابع لا يتبادلان الأفكار ولكنهما يتراشقان بالتهديدات والتهديدات المضادة ، ويصبح العنف مجرد خطوة أو صيحة ·· والمشهد يبرز الآثار المحتمل حدوثها لأفكار ووسائل الحياة التى يدعو اليها رجال لا يؤمنون الا بطرقهم الخاصة فى التفكير وانجاز الأعمال · أما النتائج الحتمية لوجهاتالنظر المتناقضة فانها تظهر فى الفصول من ٨ : ١٢ عندما ينشب العنف ·

وتتناوب مشاهد العنف ومشاهد الجدل والنقاش ، وأبرز المتحدثين هما ماك ودوك بيرنون ويقدم دوك الايدلوجية الثالثة فى الرواية · وكانت الشيوعية هى الأيدلوجية الأولى ، والرأسمالية هى الايدلوجية الثانية · ان دوك العالم الطبى هو أول من يقدم التفكير العلمى بصورة جادة فى قصص شتاينبك ·· فبينما يستنتج ماك من التجارب الشيوعية ، ويأخذ جيم من التجارب الشيوعية والتجارب الأخرى والقراءة ، يتجه دوك على نحو طبيعى الى العلم عندما يقدم تفسيرات أو يعقد مقارنات فيقول لماك ·

«أريد أن أراقب رجاله الفريق هؤلاء لأنهم يبدون لى فردا جديدا

وليسوا رجالا متفرقين على الاطلاق ٠٠ ان الشخص فى الفريق لا يكون نفسه على الاطلاق ٠٠ انه خلية فى كائن حى ، وهو لا يعود يشبه هذا الكائن أكثر مما تشبهك الخلايا التى فى جسمك ٠٠ أريد أن أراقب الفريق وأعرف ما هو » ٠

والتركيز فى موقف دوك يكون على الحقـــائق والعمليات والموضوعية ٠٠ يكون على دراسة الأشياء أو الأشخاص كما هم على حقيقتهم ، وكما يبدون ويتصرفون فى الفريق ٠ وبينما يريد دوك أن يرى « الصورة كلها » لا يؤمن بالبدايات والنهـــايات ولا بتطبيق الأحكام الخلقية ٠ فالاضرابات مثلا ليست مجرد شىء « طيب أو سىء » بل انها أشبه بعمليات أو اصابات فى الجسم يجب أن تدرس وتفهم ٠

أما تفكير ماك وجيم الهادف الذى يصدر أحكاما خلقية ، ويبحث عن نهايات وبدايات ، فهو تفكير غير سليم فى نظر دوك فيرى فى التزام جيم بالسبب تشددا دينيا ، ويقول لماك : « انك أجن خليط من القسوة وعاطفة ربة الأسرة ٠٠ أجن خليط من الرؤية الواضحة والنظارات الوردية رأيته فى حياتى » ٠

ويبدى ماك وجيم اعجابهما بمعلومات وذكاء الطبيب ٠ ومن السخرية أنهما لا يعتبرانه موضوعيا أساسا ولكن غير واقعى أساسا وتتمثل الأيدلوجيات فى الفصول من ١٣ : ١٥ مبتدئة بظهور بولتر وهو الرئيس المنتخب الجديد لاتحاد مزارعى الفاكهة ويتحدث بولتر المتزن اللطيف بألفاظ مثالية ذهنية عن أمريكا والرجل العـــامل ، والتعاون بين العمل ورأس المال ، والمال والربح ٠٠ وهو يعتقد أنه من غير المعقول مطالبة العمال بالعودة للعمل اذا كان كل من المزارعين والمضربين يخسرون أموالا ، والموافقة أولا على ٢٠ سنت فى الساعة،

ثم على نصفه الزيادة المطلوبة فى الساعة • ويقابل العرض وترجمته الى الحقائق الاقتصادية باحتقار مرير وخاصة من ماك الذى يقدم وجهة نظره عن الحقائق ويقول : « اننى لا أتحدث عن الخطأ والصواب الآن يا أستاذ •• أننى أخبرك فقط بما يحدث » • ويحتمل أن تؤدى التهديدات بالقوة الى العنف •

أما المشهد الذى يلى هذا ويظهر فيه جيم ودوك وهما يتجادلان حول النهاية فانه يمثل التناقض الجوهرى بين التفكير الهادف وبين التفكير غير الهادف •• ويبدو ماك أكثر مرونة من جيم فى المشاهد الباقية فيعيش ماك لأنه يستطيع أن يكيف الأفكار ، وفى الوقت نفسه لا يتجاهل الأشخاص والحقائق ، ويموت دوك لأنه رجل طيب يسمح لفكرة حقيقية أن تخفى أو تضع قناعا على التهديدات والأخطار فى الآخرين •• ولا يستطيع جيم أن يبقى زعيما جديدا لأن احساسه بالرسالة والنشوة الدينية تعميه عن الحقائق •

عندما خلق شتاينبك الشخصيات ووجهات النظر المختلفة لفترة الكساد اعتمد على عدة طرق من بينها وجهة نظر ضمير الغائب التى تستهين بما يفضله الكاتب ، وتركز على الحقائق أو ظهور مشهد أو حدث • وما سمى بالموقف الوسط يعتبر مناسبا لخلق شخصيات واقعية تنتمى لمشهد اضراب فى الثلاثينات ، وتبدو يقظة هارى نلسون الحذرة وتركيزاته واضحة فى عينيه الصارمتين وفى خطوط وجهه العميقة • ويعطى مظهر وتصرفات ماك شعورا بالقوة الجسدية والالتزام ، فى حين أن التركيز المستمر على الصفات الجسدية والسلوكيات يخلق فى بعض الأحيان احساسا بالتوتر يكاد يكون نابضا محسوسا • ان ماك موجود دائما وهو صلف وذكى ومستعد لأن يقول ويفعل كل ما يراه ضروريا ، فى حين أن جيم أمين ويقظ وقد صدمته التجربة قليلا ، ولكنه يملك الحزم والقوة بحيث يستطيع أن يلحق بماك •

وبسبب « الموقف الوسط » تتكرر مشاهد ماك وجيم وغيرهما وتساهم فى الاحساسبالحاضر وتعكس التطورات الشاملة موضوعية وصراحة : وذلك فى قلة تعليقات الكاتب عموما ، وفى الاستخدام المحدود للشرح والوصف ، وفى التناسب الدقيق للفصول ، وفى الترابط المتناسب للمشاهد الشخصية والجماهيرية ، وللكلام أو النشاط السلمى وللتوتر أو الأوضاع العنيفة .

وقد خلق شتاينبك مثل هذه الشخصيات والمشاهد فى الثلاثينات معتمدا على اللغة العـــادية المألوفة والحوار اليومى المعروف ، فكان لا بد أن يكون الكلام اصطلاحيا وطبيعيا ومألوفا أيضا . وعلى هذا الأساس تستعمل الشخصيات فى القصة لغة عاميـــة وتعبيرات ركيكة أو غير سليمة وسبابا وهى تنطق « الجى » الأخيرة أو لا تنطقها حسب الظروف . لقد كان الناس يتحدثون اللغة بتلك الطريقة فى الواقع كما شرح شتاينبك لناشره فى خطاب أرسله اليه .

ويظهر التركيز على الوصف فى الفقرات الوصفية للقصة فيظهر مشهد كئيب للكساد فى وصف قصير لفريق من العمال :

« كان الجمود قد حل على الرجال فجلسوا يحملقون أمامهم، ولم يبد عليهم أنهم قادرون على الكلام . وجلست بينهم نســـوة متذمرات ملطخات بالوحل .. كانوا يغرقون فى الخمـــول وعدم المبالاة وهم يقضمون قطع اللحم التى أمامهم ، وعندما فرغوا منها مسحوا أيديهم فى ملابسهم ! » .

ويتناسب الكلام مع المتطلبات الأكثر تعقيدا : فالتشبيهات فى الكلام تقدم مطابقة ساخرة لشىء فى كتب مالورى أو ملتـــون ،

والايقاعات الشعرية تخلق حالة مسالمة أو حالة وسط اضراب ٠ وهناك عدة طرق أخرى مفيدة منها عامل التناقض على مستويات مختلفة ٠ والمستوى العام هو التناقض بين الأثرياء والمعدمين ، وبين الأيدلوجيات المتعـــارضة ٠ وأهم من ذلك الجمع بين شخصيتين مختلفتين مثل ماك وجيم ، وماك ودوك ، وعضوين من آل أندرسون، ودان العجوز وجيم ، وبولتر وزعيم اضراب ٠ كما أن صورة رجل الفريق تعتبر طريقة أو صيغة فى تصوير المضربين وغير المضربين على السواء ٠ والطريقة الأخرى هى استخدام دوك بيرتون كشخصية فى كورس يقدم التعليقات على الأفكار أو الأحداث ٠ كما أن استعمال الشخصيات الرمزية البارزة مثل جوى والشريف وغيرهما يهدف الى توضيح آراء أحد الجانبين أو الآخر ، وأيضا حتمية المعارضة والعنف ٠

ان نقاط الضعف أو القصور فى In Dubious Battle هى المبالغات فى نقاط القوة ويمكن ذكر العديد منها ٠ فبينمـــا يساهم الموقف الوسط والموضـــوعية فى المظهر والسلوك والكلام الواقعى ، نجد أنه لا يفيد فى تمييز الصفات ، ولا يكفى للبحث السيكلوجى وهو ميل واضح فى قصص شتاينبك الأولى ٠٠ وعندما يصحب هذا تركيز على الأفكار والعنـــاصر الأسطورية قد تكون النتيجة اهمال مبررات أو أحاسيس الشخصية ، وربما تصبح رمزية فى نطاق واقعى عموما كما يحدث فى In Dubious Battle حيث يظهر مثلا ماك الخطيب الفصيح فى صورة فظة أو شيطانية فى لحظات غضب ، وتظل مشاعره الكامنة غامضة ٠٠ كما أن قوة وأمانة لندن تجعل منه زعيما طبيعيا ولكن أوصاف عضلاته تجعله يبدو عديم الانسانية فى مثل هذه الأوقات أو أشبه ببعل زابوب فى الثلاثينات ٠

فى مثل تلك المناسبات تبدو الشخصيتان أفكارا مجردة غير مقنعة ·· وفى الفصول الأخيرة لا تســتطيع مثل هذه التركيزات الرمزية توضيح نضج جيم كزعيم وارهاق ماك المتزايد ·

ان الاحساس بعدم الواقعية يقلل من قيمة معالجة شتاينبك للشخصيات والموضوعات الرئيسية عموما ·· أضف الى ذلك أن التركيز أو التأكيد يؤدى الى بعض التعرية فى تطور الأحداث ·· فيبدو التمهيد واضحا أكثر مما يجب فى بعض الأحيان ، فنلاحظ مثلا أن اعتزاز « داكن » بعربته يشير الى احتمال فقد العربة وصاحبها· كما أن تفاخر « دان » فى أحد المشاهد ينبىء بحدوث متاعب له فى مشهد يليه ·· وتبدو مناقشات الأفكار ــ باستثناء بعضها ــ مبسطة جدا وكأن الكاتب لا يعبأ بالتعقيدات · ويبدو أسلوب النثر نفســه عاديا وخاليا من الزخرفة فى بعض الأحيان ·· وكل هذا يعنى أن الرواية جيدة عموما ولكنها ليست رائعة ·

تبدأ القصة الأقصر بكثير Of Men and Mice على ضفة نهر ساليناس عندما نرى الرجلين ــ جورج ملتون وهو صغير ويقظ ، ولينى وهو صديقه القوى المتخلف ــ يتحدثان عن أحلامهما بأن تكون لهما مزرعتهما الخاصة · وفى صباح اليوم التالى بينما هما فى طريقهما للعمل فى مزرعة ــ يقابلان كاندى وهو رجل عجوز معوق من سكان المستنقع ورئيس العمل ، وابنه المتغطرس كيرلى ، وزوجة كيرلى وهى امرأة جميلة · ولكن جورج يشعر من أول وهلة أنها نحس ! وفى تلك الليلة يحدث « جورج » « سلم » فى معسكر العمال المهاجرين عن خلفية لين ومتاعبه فى « ويد » وهى محطة سابقة · وفى وقت لاحق بعد أن يعيد جورج رواية الحلم للينى وكاندى الذى يبدى اهتمامه يبدأ كيرلى فى العراك مع لينى الذى يسحق يده · وفى ليلة السبت والآخرون فى المدينة ظل لينى وكاندى وكروكى

عامـــل الاصـطبل الأسود يتحدثون حتى تقاطعهم زوجة كيرلى فيتفرقون • وبعدظهر يوم الأحد يظهر لينى وحده فى الجرن ويقتل بالصدفة كلبا صغيرا فى أول الأمر ثم الزوجة الوحيدة التى كانت تحاول التودد اليه •• وفى وقت لاحق من ذلك الأصيل يبحث كل شخص عن لينى ويجده جورج على ضفة النهر وليس له خيار الا أن يقتله • وينصرف جورج مع سلم بعد ذلك •

وتختلف Of Men and Mice و In Dubious Battle فى أن الأولى ينقصها العنف الواسع النطاق والمعارك الطبيعيـــة والايدلوجية الماركسية ، ويتشابهان فن أن الشخصيات لها خلفية عمالية كما أن القصة تقع أحداثها فى مزارع كاليفورنيا الواسعة أثناء الكساد • وتبدو الأوضاع فى Of Men and Mice أقل تعاسة ولكنها ليست مطمئنة أو عادية •• فالرجال يضطرون الى التنقل من مزرعة الى أخرى لكسب العيش • وعندما يجد لينى وجورج عملا عن طريق « ماراى وريدى » وهى شركة لتوفير فرص العمل للناس يعاملان مثل الأرقام ! فيتسلمان قصاصة عمل وتذاكر أوتوبيس ويحملان مثل الآخرين ممتلكاتهم القليلة فى بطانية أو صرة وتسميهم زوجته كيرلى « **مساطيل الصرة** »• ولا يستمر أجر الخمسين دولارا فترة طويلة لأن جورج يدرك فى حزن أنه يستطيع انفاقها فى ليلة سبت فى المدينة ، وهى وسيلة الترفيه الحقيقية الوحيدة من رتابة عمل المزرعة • وهكذا يمضى الرجال يتنقلون ومعظمهم لاتحدوهم ذرة من الأمل ، ويقول جورج يشرح لنفسه ولصديقه الحميم لينى :

« ان الرجال أمثالنا الذين يعملون على المزارع أكثر الناس عزلة فى العالم •• انهم بلا أسر •• انهم لا ينتمون الى أى مكان •• انهم يعملون •• ثم يفقدون عملهم •• ثم يهيمون على وجوههم فى الطرقات بحثا عن مزرعة أخرى •• انهم لا يتطلعون الى شىء » •

ولكن فى هذه القصة ··· قصة العمل الشاق والأجر الضئيل تتطلع الشخصيات الى أشياء قليلة ، فيستطيع الشخص عادة أن يجد عملا يتقاضى عنه خمسين دولارا كل شهر بالاضافة الى مسكن وطعام ، وهذا أفضل من وضع المضربين فى وادى تورجاس الذين يتقاضون ١٥ أو ٢٠ سنت فى الساعة · أما اذا كان المهاجر مستقيما ويمكن الاعتماد عليه ، فربما يستطيع البقاء فى المزرعة الى مالا نهاية ·

وهناك ربما ينتهى بحثه عن الأمن كما حدث لكارلسون الذى يستطيع العمل ١١ ساعة فى جمع الشعير ولا تشغله اية متاعب ·· ان كارلسون بالطبع مثل غيره لا يحلم بشىء ·· وهناك امكانية يدركها القليلون وتتمثل فى سلم حادى الحيوانات « الذى يستطيع أن يقود عشرة أو ١٦ أو حتى عشرين بغلا للقادة بجملة واحدة » · وقد وصل سلم من بين عمال الزرعة الى القمة فهو يتمتع بمهارة غير عادية فى قيادة العربات والبغال ، ويعرف كل مراحل العمل فى المزرعة ، وهو الزعيم المتميز أينما يوجد ·· ولا يعانى سلم من صراعات أو شكوك ، ولا يتطلع الى شىء أفضل ولا يبدو أنه يحلم بشىء ·

والحلم نفسه هو الامكانية الأخيرة ··· وهو ليس الحلم الشيوعى المعقد لماك وجيم فى In Dubious Battle ، ولكنه الحلم الشخصى المحدود لمهاجرين هائمين مثل جورج ولينى · الا أن العامل الهام لهذا الحلم ولتحقيقه بوجه خاص هو الصداقة التى يجب أن تكون أيضا صداقة من نوع خاص ·· ففى المزرعة توجد صداقات بين سلم وكارسون ، وبين كاندى وكوكس ، ولكنها اما صداقات مؤقتة أو عادية ، كما أن صداقة جورج ولينى التى ترجع الى سنوات كثيرة تقوم على احتياجات مختلفة ·· ان لينى المتخلف

عقليا الذى لا يستطيع أن يعيش وحده يحتاج الى حماية وتوجيه شخص مثل جورج · وبدون جورج يحتمل أن يهرب لينى الى كهف فى التلال كما يهدد فى بعض الأحيان أو يجد نفسه فى اصلاحية · فى حين أن جورج الذى يعتمد على نفسه نسبيا يشكو دائما من غباء لينى وعجزه ، والشكوى يمكن أن تخفف من رتابة وعزلة الحياة على المزرعة ، كما يمكن أيضا أن تزيد الاحساس بالتفوق · ولكن جورج بعد ذلك يشعر بالذنب لأنه يغضب من لينى ، كما يشعر أيضا بالحقد رغم أنه لا يعترف بذلك صراحة · أما لينى فانه من ناحية يحب الشخص الذى يعتبر كل شيء بالنسبة له · ولولا هذه الصداقة لما استطاع جورج أو لينى الاحتفاظ بحلم ·· دعك من تحقيق هذا الحلم · وبالصداقة يصبح الحلم ممكنا · الا أن هذه الامكانية تبدو بعيدة من التهكم الدرامى من الأحداث منذ البداية · فهناك عقبات كثيرة رغم أن المشاهد فى بداية القصة ومنتصفها تشير أيضا الى أن الرجلين أمامهما فرصة ·· فجورج رجل ذكى مجرب قادر على ادارة مزرعة ، فى حين أن لينى سهل القيادة ولديه القوة لانجاز الكثير من أعمال المزرعة · وطالما أن المزرعة موجودة وثمنها ٦٠٠ دولار فان وصف جورج التفصيلى لها يجعلها حقيقة ·

— « حسنا ··· ان مساحتها عشرة فدادين وبها طاحونة هواء صغيرة وغرفة صغيرة وعشة للكتاكيت ومطبخ وبستان فيه أشجار كرز وتفاح وخوخ ومشمش وأشجار توت قليلة ·· وبها أيضا مكان للرعى ·· كما أن المياه وفيرة تغمرها ·· وتوجد أيضا حظيرة للخنازير ··

— والأرانب يا جورج · ·

— لا يوجد مكان للأرانب الآن ولكن أستطيع بسهولة بناء عدة عشش للأرانب ويمكن أن تطعم الأرانب بالعشب » ·

ويمضى جورج فى حديثه وهو مسلوب الذهن بالصورة التى رسمها بنفسه للحياة الريفية البسيطة حيث يقوم كل شخص بدوره ويعيش الجميع حياة رغدة كما يقول لينى · ومع ذلك يعترف جورج بأنه هو ولينى ليس معهما أكثر من عشرة دولارات ، وعندما يتحمس كاندى ويعرض ٣٥٠ دولارا تتألق الآمال فى الحال ، وهكذا يساهم كاندى فى الصداقة والحلم معا ·

الأن السخرية الدرامية وحقائق الحياةتسود Of Mice and Men فلا يستمر الحلم ، بينما تنهار الصداقة ، وبميله الى العنف بالصدفة يقتل لينى زوجة كيرلى ، ويقتل هو بدوره على يد جورج · وهكذا تقضى الظروف على الرجلين وعلى أحلامهما بالصدفة ، أو « بشىء حدث » وهو العنوان الأول الذى كان شتاينبك قد اختاره للكتاب · أما العنوان النهائى للرواية الذى اقتبس من سطر معروف للشاعر روبرت بيرنز فهو أكثر تميزا وتشاؤما ·

"The best laid schemes 'mice an' men Gang aft a gley"

فالمعوقون فى عالم المهاجرين أمثـــــال لينى وكاندى وكروكس يواجهون قدرهم المحتوم · أما أمثال جورج فانهم ينجحون فقط فى الافلات من قدرهم ليهيموا على وجوههم فى الطرقات ·

كان جورج رجلا أفضل بالحلم أو كان فى وسعه أن يصبح أفضل ، ولكن هذا الاحتمال زال كما زال الحلم الى الأبـــد بموت لينى · وبتصوير الأحلام والصداقات والاحتياجات البشـــعة كتب شتاينبك أفضل قصة له ·· فقصة Of Mice and Men أكثر حساسية وتأملا من Tortilla Flat أو In Dubious Battle

ويمكن مساواتها بأفضل القصص القصيرة فى تلك الحقبة • وهى أيضا أول وأفضل تجارب شتاينبك مع الصيغة القصصية المسرحية التى تجمع بين مميزات كل نوع • وقد حازت Of Mice and Men قبولا طيبا فى أوائل ١٩٣٧ واحتاجت الى تعديلات قليلة قبل ظهورها على المسرح فى شهر نوفمبر كمسرحية فازت بجائزة ••• ان نص القصة يبدو صيغة مسرحية أساسا ، ويمكن اعتبار الفصول الستة ثلاثة مشاهد مسرحية يشمل كل منها فصلين •• وتحتوى الفصول أو المشاهد الفردية على أوصـــاف قليلة للمكان أو الشخصية أو الحدث • كما أن الترابط فى Of Mice and Men يقـوم على تحديدات عنيفة ، فالحديث يقتصر عادة على معسكرات العمـال المهاجرين ، كما أن تحديد الزمان بثلاثة أيام ـ من غروب شمس يوم الخميس حتى غروب شمس يوم الأحد ـ يزيد من اللهفة على معرفة ما يجرى ويزيد من الدراما •• وتصبح الأحـــداث بسيطة ودرامية بالضرورة نتيجة ضغط الزمان والمكان • ويحذف كل ما هو زائد أو معقد فلا توجد مشاهد سفر أو عمل ولا توجد مشاهد من الماضى •• والتمهيد للأحداث واضح ومثير • فمزاح لينى الفظ مع الفئران ، واطلاق النار على كاندى العجوز يمهد للعنف الذى يعقب هذا • كما أن ما يقال ينبىء بحـــدوث أشـــياء فى المستقبل ، والشخصيات تناسب بساطة الأحداث •

كانت المهارة الفنية لشتانبيك فى أوجها لخلق مثل هــــذه التأثيرات • فكل نواحى الرواية معدة بعناية فائقة ، ويمكن الاشارة الى بعض الطرق الفنية أو التكنيك • هناك تكنيك عام هو التركيز الشديد على البؤرة كما ذكرنا •• كما أن اعداد وجهة نظر شخص غائب يعتبر هاما وخاصة عندما يكون التركيز على المشهد •• ويخلق شتاينبك احساسا بالموضوعية وعدم الشخصية فيركز على المظاهر الخارجية ـ مع بعض الاستثناءات ـ يركز على ضفة النهر مثلا

أو معسكر للعمال المهاجرين ، أو على شكل احدى الشخصيات ، أو على أشخاص يلعبون الورق على مائدة ٠٠ والمشهد ليس بانوراميا كما هو الحال فى وصف مشهد وادى فى In Dubious Battle ويمكن القول مجازا أنه لا يزيد عن مساحة المسرح ٠ كما أن البؤرة مركزة على الحاضر ٠٠ على ما يمكن مشاهدته أو سماعه ٠ وتعبر الشخصيات عن الأفكار والذكريات والأوهام بطريقة مباشرة الا فى حالة كلارا عمة لينى ، والأرنب العملاق فى الفصل السادس ٠ واضافة مثل هذه الخيالات قد ينتهك أو لا ينتهك موضوعية رواية الأحداث بضمير الغائب على أن وجهة النظر تبقى موضوعية وخارجية ٠ ويتميز أسلوب النثر ـ وخاصة الايقاعات واللفظ ـ بحساسية وطبيعية أكثر منها فى In Dubious Battle ٠ كما أن اللغة عموما أكثر واقعية ودقة ٠ فأوصاف معسكر العمال المهاجرين من الداخل ـ الجدران والغرف والأثاث القليل والموقد والمائدة وممتلكات جورج ـ وأوصاف المناظر والأصوات فى غرفة كروكس وفى الجرن تخلق احساسا بعالم العمل اليومى ومشاقة ٠٠ ففى غرفة الحيوانات حيث يقيم كروكس تجد أشياء معلقة مثل « أجزاء من السرج وطوق مشقوق يبرز منه حشو شعر الحصان وسلسلة بغطاء جلدى ممزق» ٠ وهنا تبدو الدقة بوضوح ٠٠ ورغم عدم وجود مشاهد للعمل ، الا أن الاشارة الى جمع الشعير ١١ ساعة يوميا ، والى العمال الذين يبقون شهرا ثم يرحلون ، والى أمسيات لعب الورق والمجلات الجنسية الرخيصة ، كل هذا يوضح الرتابة التى تثير الملل ٠ كما أن عراء مخيم العمال والتركيب الآلى للأسرة والصناديق الخشبية يشير أيضا الى عراء الروح ٠٠ ومع ذلك تظهر فى سياق القصة أوصاف رقيقة وشاعرية احيانا لأشياء آمنة سارة جميلة وغالبا ما تقدم بغرض اثارة السخرية بالتناقض مثل المشهد الريفى فى البداية ٠٠ المشهد المشمس الدافىء فى الجرن فى أصيل يوم أحد،

ومشهد « البركة الخضراء لنهر ساليناس » فى النهاية ٠٠ والرموز التى لا تتضمن المواد الأسطورية السائدة فى In Dubious Battle تعتبر جزءا من الكلام والأمكنة والأحداث فى ذلك الوقت على نحو مقنع ٠ فمشهد ضفة النهر يوحى على الأقل بالحياة على الطبيعة ، وهو المستوى الذى لا يرتفع عنه لينى كثيرا ، كما أن ضفة النهر هادئة تبعث الطمأنينة حتى يطلق جورج النار ويدمر الصديق والحلم ٠ والمزرعة تقدم نوعا آخر من الأمن ومكانا للأحلام أيضا ٠ ولكنها تظل لا ترضى أساسا أمثال لينى وجورج فى العالم ٠ ان ضفة النهر والمزرعة تقدمان الحدود الخيالية والحقيقية لعالمهم ٠ أما مخيم اللاجئين والجرن فانها لا تقدم الا الحد الأدنى من الأمن المادى ، وترمز الى الخواء الأساسى وعدم وجود ذلك العالم ٠

والرمز الرئيسى هو الحلم نفسه « منزل صغير وفدانان وبقرة وبعض الخنازير و ٠٠٠ » الذى يجمع الرجلين معا ويثير آمال رجلين آخرين ومن المحتمل جدا أنه يعبر عن آمال آخرين ٠٠٠ (ويظهر ثانيا رمز « المنزل الصغير » تحت ظروف أصعب فى The Grapes of Wrath) والأحداث السائدة فى Of Mice and Men والتى تتميز بنفس بساطة وموضوع العظات تذكرنا برحلات شخصيات أخرى فى القصص الأمريكية مثل الشخصيات فى قصص ويللينجبورو ردبيرن وهاك فين ، وهنرى فليمنج ، التى تبحث أيضا عن أهداف لا تصل اليها ٠

وتظهر علامة جودة أخرى فى تنوع وعمق الشخصيات ٠ فلينى الذى يعتبره بعض النقاد أقل من مستوى البشر أشبه بصبى متخلف نما وكبر قبل الأوان وقادر على الأمل والحب ، ونزعته الى العنف غريزية ، ولكنها ترجع أساسا الى السذاجة وحب الامتلاك

الصبيانى · فلابد أن يدلل ويهدىء روع المخلوقات الحية ، ويكمل جورج بذكائه الخاص ضخامة لينى الجسدية البحتة · فهو ذكى سريع التكيف متيقظ لحياة المهاجرين على حقيقتها · على أن جورج له نقاط ضعفه فهو يندد بلينى ويحتاج اليه حتى يرضى بوضـــعه العادى ، وهو أيضا يميل الى الجنوح·الا أن الرجل سوى فى جوهره ويعترف أخيرا أن الحلم لم يكن ليتحقق ، كما أن لديه من الشجاعة والحكمة ما يجعله يكذب بالنسبة لما فعله لينى ·

أما كاندى وكروكس فهما من ضحايا العصر المغلوبة على أمرها ضحايا الضغوط الاقتصادية أو التحيز العنصرى ، ويصوران تكتيك خلق الشخصيات التكميلية · ان كبرياء كروكسى وصراحته المريرة تصور أيضا صراحة شتاينبك نفسه فى انتقاد عيوب المجتمع فى الثلاثينيات ، الا أن كروكسى شخصية قائمـــــة بذاتها ، وليس شخصية على ورق كرتون تتحدث بلســـــان المؤلف · أما كيرلى المتغطرس فهو نموذج مألوف بعض الشىء ، وزوجته التى لا يذكر اسمها ليست امرأة « منحلة » كما تصفها عدة شخصيات ، ولكنها ضحية لخيال أنانى ضحل · ان وحدتها التى تثير الرثاء وحلمها بالنجومية يعكس رتابة حياة المزرعة وقدرها المكتوب عليها ·· والحوار الرائع يضفى حياة على كل الشخصيات وأخيرا يلاحظ أن جورج ولينى يرمزان الى شىء من الصمود والأمل ، كما يرمزان أيضا الى اللغو الخالى من أى معنى ·فهما يستطيعان ـ ولو لفترة ـ أن يسموا فوق الظروف ، وأن يقنعا أنفسهما وغيرهما بأن الأحلام جزء من الأرض ، وأنه ليس عليهما الا أن يمضيا فى العمل والأمل، وسوف يصلان الى المكان اللائق بهما فى أحد الأيام ··· لو أنهما فقط استطاعا أن يتحكما فى ضعفهما ويسبقا الظروف قليلا ·· وسوف يصلان الى المكان اللائق بهما فى أحد الأيام ··· لو أنهما ولكنهما لايستطيعان ·· كل هذا وأشياء أخرى يبحثها شتاينبك بمعان أكثرتعقيدا ومدى أوسعوقدرة أكبر فى قصة The Grapes of Wrath

موافقة ومعارضة فى الغرب

فى ١٤ مارس ١٩٣٩ ظهر الكتاب الثامن لشتاينبك وقد أحاطته ضجة قليلة وسبقه اعلان عام لمرة واحدة · وكان فى انتظاره جمهور أبدى اعجابه بمزايا In Dubious Battle و Of Mice and Men وما كاد يظهر The Grapes of Wrath حتى وصل معدل بيعه الى ٢٥٠٠ نسخة كل يوم ، ووضع فى مقـــدمة قائمة أكثر الكتب رواجا فى ٦ مايو ، وبقى فى المقدمة طوال العام ، وطبع منه حوالى ٤٣٠ر٠٠٠ نســـخة · وقد حصل The Grapes of Wrath على شعبية ضخمة فى عام ١٩٤٠ لدرجة أنه لم يكن هناك حاجة لاصدار نص خاص فى ذلك العام عندما تحول الى فيلم وقام ببطولته هنرى فوندا وجون كارادين ، وظلت القصة تصدر منذ ذلك الحين ، وصدرت فى طبعات غالية مصورة وفى طبعات رخيصة على السواء · كما ترجمت الى اللغات الفرنسية والألمانية واليـــابانية ، وأصبحت قصة أمريكية كلاسيكية فى الثلاثينات وأصبح عنوانهـــا مألوفا يوضع دائما فى قوائم الكتب المدرسية المقـــررة ، وظل الآف من الطلبة يقرأون The Grapes of Wrath منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ·

وهناك عدة عوامل أدت الى رواج وشعبية القصة فى بداية الأمر · من بين هذه العوامل أن فترة الكساد لم تكن قد انتهت فى عام ١٩٣٩ فوجد كثير من القراء فى القصة تصويرا صريحا للقحط ومشاكل المهاجرين التى كانوا قد قرأوا عنها فى الصحف أو ربما تكون قد مستهم هم أنفسهم · أضف الى ذلك أن ثمن النسخة وهو ٢٫٧٥ دولارا لم يكن كثيرا بالنسبة لقصـــة كانت هى نفسها بين

الأخبار .. ولا شك أن التحقيقات الصحفية التى ظهرت فى الصحف وأذيعت فى الراديو حول ردود فعل القـــــراء فى أوكلاهوما وكاليفورنيا على The Grapes of Wrath ساعدت على رواج القصة . لقد هاجمت الجمعيـــات الخلقية والزراعية ما اعتبرته تشويها بشعا للظروف والأوضاع فى الثلاثينات ، وقد حاول حاكما الولايتين وغيرهما من كبار المسئولين وكثير من رؤســـاء تحرير الصحف أن يوضحوا للقراء أن أشياء كثيرة فى القصـــة ليست صحيحة . وزادت ردود الفعل فى ولايات أخرى من هذا الجدل .

لقد منعت بعض المكتبات وبعض مجالس ادارة المدارس قراءة هذه القصة ، كما أن بعض الشيوعيين فى البلاد مثل وستبروك بجلر ورايموند كلاير استنكروا عدة نواحى فيها ، وظهر فى مجلة كولبير الأسبوعية القومية مقال ندد بالقصة باعتبارها دعاية شيوعية !

ولعل الاســـتقبال المثير لقصة The Grapes of Wrath يرجع أيضا الى أنها تشمل ألفاظا بذيئة وتلميحات جنسية فى وقت لم يكن فيه ظهور مثل تلك التعبيرات في الكتب شيئا عاديا ، كما يرجع الى التصوير الواقعى للشخصيات والأوضاع والى الآراء المتعارضة التى تثيرها موضوعات اجتماعية واقتصادية . أما القراء والمعلقون الذين يهتمون بالقصة باعتبارها عملا أدبيا وليس دراسة اجتماعية، فقد أبدوا اعجابهم بها بوجه عام . فكتب ادوارد ويكس رئيس تحرير « ذى أتلانتيك مونثلى » أن قصـــة The Grapes of Wrath هى خلاصة ١٨ سنة من الواقعية ، وأنها « عمل أدبى منظم عظيم » أما جوزيف هنرى جاكسون الذى كان يكتب فى نيـــويورك هيرالد تربيون فقد اعتبر القصة « صـــادقة وأمينة بعمق ومجهودا خلاقا رائعا على أى مستوى . وقد كان واضحا أن القصة تفوق أعمال

شتاينبك الأولى ، وتسمو بضع خطوات على « ذهب مع الريح » التى كانت ذائعة الصيت فى ذلك الحين ، وتحتل نفس مكانة « لمن دقت الأجراس » لهيمنجواى التى صدرت عام ١٩٤٠ ، وعندما أجرت صحيفة The Saturday Review of Literature استطلاعا بين النقاد عام ١٩٤٠ أيد معظمهم رأى الصحيفة فى اختيار The Grapes of Wrath أشهر قصة فى ذلك العام · وبعد قليل حصل شتاينبك على جائزة بوليترز لعام ١٩٤٠ ·

وتعتبر The Grapes of Wrath احدى القصص الرائعة المبتكرة فى حقبة شهدت As I Lay Dying Absalom, Absalom لوليم فولكنر · وثلاثية قصص الولايات المتحدة الأمريكية لجون دوس باسوس ·· وقصة شتاينبك تشمل رواية طويلة مليئة بالأحداث وفقرات عرض كثيرة ، وتوسع المستوى الروائى بعدة صيغ بنـاء هامة ، وتبين الى جانب أشياء أخرى المهارة الفنية والتكنيك الخيالى للكاتب ويمكن ذكر أهم الفقرات أولا ·

بعد اطلاق سراح توم جود من سجن فى ولاية أوكلاهوما يتجه الى بيته وفى الطريق يقابل جيم كازى ويكتشف أن أسرته تحزم حقائبها لتنتقل الى كاليفورنيا بعد أن فقدت الأرض والبيت · وبعد قبول كازى عضوا فى الأسرة يجتمع شمل أفراد أسرة جود حول الأبوين والأم بوجه خاص ويرحلون على الطريق المزدحم هدسون سوبرسكى ·· وفى بداية الرحلة يموت الجد جود ، ويتم دفنـه بمساعدة أسرة ولسون ، وهى تتكون من زوجين من ولاية كنساس ، وفى أماكن مختلفة على الطريق ٦٦ يواجه آل جود بعض الأهالى الذين يتسمون بالعداء والشكوك ، كما يقابلون آخرين غيرهم متجهين الى الغرب ويسمعون تحذيرات بأن كاليفورنيا سوف تخيب آمالهم··

وعند نهر كولورادو تنفصل أسرة ولسون ونوح وهو ابن آخر عن المجموعة ، كما تموت الجدة جود أثناء عبور آل جود صحراء موجاف وفى معسكر هوفر قيل التعس وهو أول محطة للأسرة يذهب جيم الى السجن لينقذ توم ، ويرحل كونى زوج روز أوف شارون ٠ ولكن ماما جود تستطيع بقوتها وعزيمتها أن تجعل الأسرة تمضى قدما ٠ وبعد ذلك يقيم آل جود فى معسكر ويد باتسن البهيج ولكنهم يتركونه للعمل فى بستان هوبر وهم لا يعرفون أن العمل فيه معطل بسبب الاضراب ، وأن كازى الذى خرج من السجن هو زعيم الاضراب ٠ وعندما يطرح توم أرضا يقتل الرجل ويرحل آل جود شمالا ويجدون معسكرا مكونا من عربات القطار والخيام فيعملون ويأكلون بانتظام بينما يختفى توم من كهف قريب ٠ وبعد أن تكتشف روثى مكانه بالصدفة تطلب ماما جود من توم أن يرحل ٠٠ وبعد ذلك أثنـــاء حدوث فيضان تضع روز أوف شارون طفلا ميتا ويرحل من بقى من آل جود الى جرن حيث يجدون رجلا يموت جوعا فترضعه المرأة الشابة من ثديها حتى تنقذ حياته !

يوجد عدة مستويات بناء فى هذا الملخص ٠ والمســـتوى الأسطورى الظاهر المتطور بطريقة ملموسة أكثر من المســـتويات الموجودة فى Tortilla Flat، و In Dubious Battle هو المستوى الانجيلى ٠ فرحلة أفراد أسرة جود الـ ١٢ تشبه رحلة قبـــائل اسرائيل الـ ١٢ فى التوراة « العهد القديم » ويتعرض آل جود فى أوكلاهوما لظلم أصحاب الأراضى والبنوك ، كما يتعرض اليهود فى مصر للظلم فى عهد فرعون ٠ وعندما يزداد الغبار والقحط والقمع ويصبح أمرا لا يحتمل ، يبدأ آل جود هجرتهم وتبدأ السنوات التى يهيمون فيها على وجوههم ٠ ومثل اليهود القدامى لابد أن يواجه آل جود اللصوص والأعداء حتى يصلوا الى كاليفورنيا أو « أرض الميعاد»

Canaan وهناك يتعين عليهم أن يبقوا بعيدا عن الأرض الا اذا احتاج اليهم أصحاب الأرض للعمل ٠٠ والى جانب هذه الصيغة الروائية العامة وصف فونتينروز وغيره ثروة من المواد الانجيلية المعينة ٠ فقسمى شخصيات كثيرة بأسماء انجيلية ، أو تملك صفات وروابط انجيلية ٠

ان جيم كازى مثلا يشبه شخصية المسيح وهو أيضا زعيم دين جديد ، فى حين يتسم توم بصفات كل من بطرس وموسى ، كما أن نوح وروز وجون لهم نظائرهم فى الانجيل ، ويمكن اعتبار كونى يهوذا ٠٠٠ والأنشطة المختلفة التى يشترك فيها آل جود وغيرهم تحمل أهمية عالية لأن مثل هذه النبرات والصلات الانجيلية تضفى عمقا على قصص الثلاثينات ٠

ان المستوى الانجيلى يمثل تقليدا ملحميا قديما ، ولكن القصة تعتبر أيضا ملحمة للعصور الحديثة لأن آل جود مثل آل باندرينز فى As I Lay Dying لفولكنر لابد أن يبقوا على قيد الحيـــاة بعد المحاكمات بالحرق وبعد القحط والفيضان ٠ ولا بد أن يتعـــاملوا أيضا مع الموت والميلاد كأشخاص ريفيين بسطاء ٠ ويتسم آل جود بصفات الانسان العادى من حيث قوة عزيمتهم واعتزازهم بكرامتهم كما أن زعماءهم يظهرون شجاعة كبيرة فى مواجهــــة العقبات والأعداء ٠

والمستوى الطبيعى يعتبر فى نفس أهمية المستوى الانجيلى ، وهو على عكس مميزات الملحمة يعكس عناصر متشائمة وحتمية فى القصة فيظل آل جود معرضين للأخطار خلال رحلتهم ، بعد أن نزحوا عن الأرض تحت ضغط قوى طبيعية واقتصادية لا يستطيعون السيطرة عليها أو تعديلها ٠أنهم مثلا لا يستطيعون أن ينقذوا الجدين، أو يمنعوا اختفاء نوح ٠٠ وفى كاليفورنيا يندر وجود العمل والمال

والأمن وفى النهاية تحل الهزيمة على كل من بقى من أفراد أسرة جود رغم الصبر والصمود والعمل الشاق ٠

لقد اعتمد شتاينبك على عدة طرق حتى يخلق عملا له مثل هذا العرض والعمق ٠٠ والتكنيك العام يتصل باللغة نفسها التى كان لا بد أن تكون سلسلة مليئة بالتشبيهات والاستعارات ، ومع ذلك واضحة لتحقق أغراضا مختلفة ٠ والواقع أن القصة لها عدة لغات ٠٠٠ يوجد مثلا النثر الموثق لتقديم المعلومات عن الولايات والمدن والطرق فى غرب الولايات المتحدة ٠٠ وتوجد اللغة الجريئة الصريحة لنقل المشاعر الوحشية عديمة الانسانية للملاك والقوى التى تدير شئون البنوك ٠ وعندما يرد وصف الفساد فى العمل يسرع ايقاع النثر وتبدو الكلمات صارخة صلبة ٠٠ وتوجد لغة أكثر شاعرية وسخرية تصف جمال ونضج فواكه وخضراوات كاليفورنيا التى يحتمل أن تفسد بينما يتضور الناس جوعا ٠٠ وهناك لغة رشيقة حاسمة تصف الريف فى أوكلاهوما ، كما توجد اللغة العادية والمصطلحات التى يستعملها آل جود وغيرهم ٠ وهذه المستويات المختلفة للغة سواء المكتوبة أو التى يتكلم بها الأشخاص تشبه الى حد كبير الشعر المنثور لوايتمان وساند بورج والبساطة الساخرة لهيمنجواى كما تشبه بعض الفقرات الانجيلية فى ايقاعها المميز وتعبيراتها ٠ الا أن أهم صفات مميزة للغة المكتوبة هى الدقة والايقاعات الطبيعية والانجيلية أحيانا ، والصور التى تقوم عادة على عناصر الأرض أو الحياة اليومية ٠

وتبدو المهارة الفنية فى The Grapes of Wrath رائعة عموما فى نواح أخرى أيضا ٠ فبينما تروى القصة بضمير الغائب تختلف وجهة نظرها اختلافا كبيرا فى النبرة والهدف والطريقة وتلقى نظرة بانورامية راقية كما يلاحظ هذا فى معظم الفصول

الاضافية ، أو نظرة درامية قريبة كما يتضح هذا فى الفصـــــول الروائية · أضف الى هذا أن وجهة النظر المتضمنة فى فصل قد تتحول من النظرة الشخصية الى غير الشخصية ، ومن الموضـــوعية الى الساخرة · ويمكن تقديم أمثلة على مهارة شتاينبك فى استخدام وجهة النظر والتكنيك المترابط بالنسبة لسمة تتميز بها القصة وهى الفصول الاضافية ·

ان هذه الفصول الـ ١٦ والفردية منها عادة تقدم خلفيـــــة اجتماعية وتاريخيـــــة لتجـــارب آل جود وغيرهم فى منتصف الثلاثينات · وقد تتفاوت الخلفية بين أوصاف الأحوال الزراعية فى أوكلاهوما (الفصل الأول) ، وتقارير عن الطرق فى الغرب من أركانساس الى أوكلاهوما (الفصل الثانى عشر) ، ومعلومات عن أصل كاليفورنيا وملكية الأراضى فيها (الفصل التاسع عشر) ·· أن مثل هذه الفصول التى تلقى ضوءا على موضوعات الأرض والنزاعات غالبا ما تشمل فقرات ومشاهد وصفية تبرز هذه الموضوعات ، فى حين أن الفصول المحددة أكثر تتصل بمشاكل آل جود مبـــاشرة · فيشرح ويبرز الفصل الخامس النزاع الاقتصادى بين المستأجرين وأصحاب الأرض ، ويشمل مشهدا من المواجهة المريرة بين سائق جرار وبين أسرة أجير تقرر ترحيلها ·· فى حين يتكون معظم الفصل السابع من مساومات البيع التى يستعملها تاجر سيارة مستعملة ، كما يقدم مشهدا مألوفا جدا لآل والأب توم · ويستـــــخدم الفصل التاسع تكنيك الراوى المجهول وهو يبيع ممتلكات الأسرة ويفكر فى مرارة فيما تمثله هذه الممتلكات · أما الفصل الخامس عشر الرائع فهو فى الواقع قصة صغيرة تصور « كشك » لبيع الهامبرجر وعلامات الثلاثينات وهى جرسونة مرهقة وأسرة أجير محتـــــاجة وزوجين مترهلين معهما نقود · وتقوم معظم الفصول الاضافية بتطوير رموز القصة الرئيسية وهى الأرض والأسرة والصـــــدام بين الأثرياء

والمعدمين ، أما السلحفاة البرية التى تظهر فى الفصل الثالث ومرة أخرى بعد ذلك فانهـــا ترمز الى صفات آل جود والى جيم كازى المثابر أيضاً ٠

وتساعد هذه الموضوعات والرموز المختلفة على ربط المواد ووصل الفصول الاضافية بالفصول الروائية ، وتظهر فى سـياق القصة اشارات العنب وحقول العنب بمعانيها الانجيلية والاقتصادية٠ كما تظهر أيضا صور للنقود والغبار والحيوانات والعربات واشارات الى آل جود وعائلات أخرى والى الأرض والى حادث مألوف يساعد على توضيح المواد وربطها ٠٠ وتخلق معظم الفصول شعورا بالحركة فى المكان ٠٠ الى الغرب أو فى كاليفورنيا الى المعسكر التالى ، كما توحى أيضـــا بحركة فى الزمان من الماضى الذى كان يبعث الطمأنينة عادة الى الحاضر العصيب ٠٠ الى نهاية يوم ٠٠٠ حصاد ٠٠٠ حياة شخص ما ٠

وبسبب تعقيد القصة وسعة مداها سوف يقتصر النقـــاش أولا على عدة موضوعات كبرى ٠٠٠ على نواحى الأرض والأسرة والرحلة وعلى موضوعات النزاع والموافقة والمعارضة وســـوف يتبع ترتيب النقاش الحلقات الثلاث الرئيسية للأحداث وهى : آل جود فى أوكلاهوما (من الفصل الأولى الى الحادى عشر) ، ورحلتهم (من الفصل الثانى عشر الى الثـــــامن عشر) ، وآل جود فى كاليفورنيا (من الفصل التاسع عشر الى الفصل الثلاثين) ٠

رغم أن قصة شتاينبك East of Eden (١٩٥٢) تغطى مساحات من الريف أكثر مما تغطى The Grapes of Wrath الا أن أوصاف الأرض خارج كاليفورنيا فى القصة الأولى قصيرة بعض الشىء ٠

وتعتبر أرض The Grapes of Wrath فسيحة جدا اذا قورنت بغيرها ، كما أن جزءا منهـــا موصوف بالتفصيل ، وتشمل الأرض معظم أوكلاهوما وأجزاء من ولايات أخرى ، ومنطقة كبيرة من كاليفورنيا • وتبدأ القصة بوصف أوكلاهوما فى منتصف الثلاثينات على الأرجح :

• « هطلت الأمطار الأخيرة برفق فوق الأرض الحمراء وجزء من الارض الرمادية لأوكلاهوما ولم تخدش الأرض •• لقد رفعت الأمطار الأخيرة الذرة بسرعة وبعثرت الأعشاب والحشـــائش على جوانب الطرق ، وفى الجزء الأخير من شـــهر مايو بدت السماء شاحبة وتبددت السحب التى كانت معلقة فى زغب عالية لمدة طويلة فى الربيع ، وسطعت الشمس على الذرة الذى كان يكبر يوما بعد يوم وتيبس سطح الأرض بقشرة صلبة رقيقة ، ثم حل شهر يونية وسطعت الشمس بعنف أكثر » •

وبينما تستمر الحرارة والجفـــاف طوال الصيف تجف المحاصيل شيئا فشيئا ، ويمتلىء الهواء بغبار ناعم ، وتتحول المنطقة الى أرض جرداء فى وسط الغـــرب • وتوصف آثار القحط فى الفصلين الاضافيين ٥ ، ١١ بينما يتناقش الملاك فى موضوع الأرض التى تموت وتترك المزارع والمبانى خاوية • ويعتبر المشهد البانورامى نسخة روائية للأراضى التى ذرتها الرياح فى الثلاثينات عندما كانت الأرض القاحلة الجافة ودوامات سحب الأتربة من حقائق الحياة اليومية بالنسبة للمزارعين •

وتتركز الفصول الروائية الأولى على الأرض قريبا من ساليناس وسط شرق أوكلاهوما • وتختلف الأرض تماما فى الثراء أو الخصوبة عن أرض المزارع فى وادى ساليناس • ومع ذلك يستطيع المزارع

فى السنوات الطيبة أن يكسب من زراعة الذرة أو القطن ما يكفيه هو وأسرته ، ويشعر بأن له كيانا وشخصية ان لم يكن ملكية ٠٠ ان معظم المزارعين فى تلك المنطقة والمناطق المحيطـــة مزارعون صغار ٠ ربما يكونون قـــد امتلكوا الأرض فى أحد الأيام ولكنهم فقدوها ولا بد أن يســـــتأجروا الأرض ويشـــتركوا فى عمليـــات الزراعة مع صاحب الأرض أو البنك أو أى وكالة أخرى تمنح قروضا أما فى السنوات العجاف فان المزارع يضطر الى اقتراض مبالغ كبيرة حتى يستطيع دفع الايجار ٠ وعندما لا يتحقق ذلك تباع الأرض أو تؤجر لشخص آخر ٠ وعندما يفقد المزارع الأرض فانه لا يفقد مصدر دخله فقط ، وانما يفقد كيانا وشخصية ووسيلة حياة أيضا كما يتضح هذا فى The Grapes of Wrath .

ان التركيز الرئيسى فى الفصول الأولى والتى تليها ليس على الأرض بقدر ما هو على المزارعين أنفسهم وعلى عائلاتهم ٠ ويمكن القول بوجه عام أن The Grapes of Wrath كتاب عن الأسر وتشمل الأسر الكثيرة المجهولة التى تظهر فى القصة وفى الفصول الاضافية عادة والأسر المعنية مثل آل جود خاصة وأسر قليلة غيرها ، كما تشمل أسرة الرجال بمعنى عام أو بمعنى موضوعى ٠

والأسر المجهولة الاسم التى توصف فى الفصول الأولى عبارة عن أسر من أوكلاهوما وهم مزارعون صغار غير معروفين وقعوا ضحية للقحط ٠ كما أن الحكايات عنهم غير شخصية بل تكاد تكون وثائق أو تحقيقات قصصية تصف أوضاع الآلاف ٠٠ وفى الفصل الأول لا تظهر كلمة أسرة فيشار الى الأسر غير المعروفة بـ « رجال ونساء » أو « هم » أو الناس الذين ٠٠

« رقدوا فى فراشهم وسمعوا الرياح تهدأ ٠ لقد استيقظوا عندما توقف هبوب الرياح ٠٠ ورقدوا فى هدوء ٠٠ وخرج الناس

من منازلهم واستنشقوا الهواء الحار اللاذع وغطوا أنوفهم منه ٠٠ ووقف الرجال بجانب سياجهم ونظروا الى الذرة الذى تلف ٠ وبعد برهة أصبحت وجوه الرجال المراقبين صلبة غاضبة عنيدة ٠٠ ثم أدركت النساء أنهم فى أمان ٠٠ ولن يحدث تغيير » ٠

وفى الفصول الأولى تبقى الأسر صامدة رغم أن كثرة منها تتورط فى عمليات اقتصادية أقل مباغتة من دورات الطبيعة ، وليست أقل منها تدميرا فى بعض الأحيان ٠

وتتضح آراء ومشاعر الأسر المعدمة في الحكايات عن آل جود وهى أبرز أسر شتانبيك وتستحق الذكر فى القصص الأمريكية الحديثة مثل آل برجسون فى قصص كاثير وآل بندرينز فى قصص فولكنر ٠٠ وفى الفصول الأولى يبدو آل جود واقعيين مكافحين رغم خسائرهم ، ويتصرفون بطريقة طبيعية لأنهم تعلموا أن يعيشوا بما لديهم ٠٠ ان الأسم الكامل للجد وهو وليم جيمس جود الذى يتضمن اشارة واضحة الى الفليسوف الأمريكى يوحى الانشغال بالحقائق والأشياء وعواقب الحياة اليومية ٠٠ ويتضح أيضا أن براجمانية برارى أوكلاهوما متأثرة الى حد ما بعقيـــدة الأسرة البروتستانتية وذلك فى الاشارات الى كنيسة جيم كازى القديمة والجديدة ، والى ردود آل جود العاطفية على الصلاة والبعث ، والى أهمية الانجيل باعتباره نسخة حرفية لكلمة الله ٠ ومع ذلك فان جون جود وحده هو الذى يعانى من احساس قوى بالخطيئة والذنب ٠ كما أن تفكير الجدين أصبح مشوشا بالنســبة لتعاليم الانجيل ٠ فى حين أن الوالدين يأخذان دينهما بطريقة واقعية بدون احساس بالتفوق أو التعصب ، فالايمان بالله فى نظر ماما جـــود هو ايمان بالحب والصبر والتسامح ٠

ويستطيع آل جود البقاء معا شهورا كثيرة ويبدو شعورهم بالتضامن والوحدة ثابتا لأنه يقوم على التعاون والتسامح والحب المشوب بالحقد ! وقد قضت حياة صغار المزارعين أن يقوم كل واحد أو واحدة بنصيبه فى العمل · ولا شك أن روز أوف شارون قد ساعدت أمها فى الأعمال المنزلية قبل زواجها وحملها · كما أن الأطفال الصغار يقومون ببعض المهام فكان « آل » يعمل مع أبيه فى الجرن أو فى الحقل عندما لا يكون مشغولا بمطاردة الفتيات ! وبعد زوال المزرعة يستمر كل شخص فى القيام بنصيبه فى العمل · والوالدان هما اللذان يعملان أطول فترة وهما قدوة فى العمل وفى نواح أخرى أيضا ، ولا يتوقعان الكثير من الآخرين ، كما أن ماما وبابا جود ليسا عاطفيين ولا استعراضيين ولا يثيران أى شك بالنسبة لحبهما للأطفال ·

ويغمر الصغار والكبار احساس بالفخر والاعتزاز بالأسرة · وفى صفحات The Grapes of Wrath تظهر شخصيات كثيرة وبعضها لا ينسى · وأفراد أسرة جود مرسومون بطريقة رائعة ، وهى أسرة مزارع واقعية ولا تتميز عن غيرها فى معظم النواحى الا أنها مصممة على أن تعيش ، وألا يمس أحد شخصيتها · ولعل أكثر شخصية تظل عالقة فى الذهن من شخصيات شتاينبك هى ماما جود وهى الشخصية الرئيسية وترمز ماما جود الى قوة الأسرة والى صفات الأمومة الخالدة · وهى امرأة رائدة عاشت فى أوكلاهوما فى الثلاثينات ، وعند عودة توم يراها لأول مرة فى المطبخ ويقول :

« كانت ماما ثقيلة ولكنها ليست بدينة ·· ضخمة بحمل الأطفال والعمل ، كانت ترتدى ثوبا فضفاضا من القماش الرمادى يصل الى منكبيها ·· وكان شعرها الخفيف الرمادى فى لون

الفولاذ معقوصا فى عقدة رقيقة رفيعة خلف رأسها ٠٠ وكانت ذراعاها القويتان المملوءتان بالنمش عاريتين حتى مرفقيهــا ٠٠ وكانت يداها ممتلئتين رقيقتين مثل يدى طفلة سمينة صغيرة ، أما عيناها العسليتان فقد بدا عليهما أنها مرت بكل معاناة ومأســاة ممكنة وكأنهما تتشحان بتفهم كبير هادىء فوق طاقة البشر » ٠

ويستمر الوصف بعبارات مديح تميل الى اضفاء شىء من الخيال على الصورة وذلك بالتركيز على أفكار أو مثل عليا على حساب الشخصية٠ان الأوصاف لاتشهد فقط بمثالية وتعاطف شتاينبك ولكنها تدل أيضا على فشل مؤقت فى تحويل الرموز الى شىء حقيقى يمكن تصديقه ٠ ان الوجود الجسدى لماما جود وكلامها وسلوكها بوجه عام يجعلها شخصية يمكن تصديقها ، ويصور أيضا صفاتها الممتازة ولكن الانسانية جدا ٠

وأكثر الشخصيات حيوية بعد ماما جود همـــا توم وجيم كازى ٠ فبعد أربع سنوات فى سجن ماك أليستر يبدو توم حذرا واقعيا واثقا فى هدوء ٠ ومن حسن الحظ أنه أخذ عن أمه مقدرتها وهى أن يتعلم وهو ماض فى طريقه ، وهى مقدرة هامة فى فترة الكساد التى تحدث فيها أشياء لا يمكن التكهن بها ٠

ان توم الماهر فى الحكم على الشخصية يحب الواعظ الثرثار اللطيف عادة ٠٠ والواعظ يأتى من سجن آخر ٠٠ وهو سجن تطرف المسيحى فى مرحلة مبكرة وما يجرى من تحته من تيارات جنســـــية مكبوتة ٠ ويترك جيم وراءه كلا من التعصب والجنس ويستعد لحياة جديدة ٠٠ انه أمين عطوف وملتزم بشجاعة لمساعدة أناس مثل آل جود ٠

ويصور حديث توم وجيم على الطريق الزراعى محـــاولات شتاينبك فى مسرحية الأفكار منذ In Dubious Battle ·· ومشـــــهد الطريق ليس فيه جو الفصل المدرسى الواضح فى القصة الأولى · ورغم أن المشهد يتضمن كلاما متقطعا من جيم أكثر منه تبادل أفكار ، الا أن التوضيحات وملاحظات توم صريحة وواضحة فى حرارة شهر يونية الجافة ·· ان دوك بيرتون فى In Dubious Battle يدعى الى براجمانية علمية ، وجون يقدم هنا مزيجا من حصافة الرأى والأخلاقيـــات الأمريكية غير المسيحية فيقول انه لا توجد خطيئة أو فضيلة ، ويوضح اعتقاده فيقول ان كل ما نعرفه هو ما يفعله الناس « فبعضهم لطيف وبعضهم ليس لطيفا وهذا هو أقصى ما يستطيع شخص أن يقوله » · ويقوم دين كازى الجديد على الحب والايمان بروح كل انسان وبروح شاملة أيضا · والروح القدس للانسان مشتقة من أفكار أمريكية وجدت أولا كما يقول النقاد فى ويتمان وأميرسون ·· أما كازى فهو روح ميتافيزيقية وصلت حديثا وقدم بعض الفوائد على المستوى البراجماتى على الأقل · ويظل توم لفترة متهما سابقا براجمانيـا لا يهتم بالأخلاقيات بقدر ما يهتم بالعثور على أسرته والاحتفاظ بسجله فى السجن سرا لنفسه ·

وفى سياق القصة تظهر شخصيات كثيرة تشترك مع آل جود أو فى أنشطة ذلك العهد ·· ان مولى جريفز ليس فاشلا بحساباته الخاصة ، وهو ليس رجل أسرة فقط ، ولكنه متمرد يصر على الصمود لأنه ينتمى الى هناك ·· ولأن الجذور فى الأرض ·· لن يرحل ·· ويدرك توم وجيم أن قتال مولى لا أمل فيه ·· وهناك شخصية أخرى مؤثرة جدا وهى تاجر السيارة المستعملة فهو متحدث سريع ومتطفل يكسب كثيرا من متاعب الآخرين · أما شبه السائق الذى يوصل توم فى سيارته فهو أقل تعرضا للمضايقات

والتهديدات من معظم الآخرين فى القصة ، وسوف يتحمل الكساد محاولا التركيز على مناهج محفوظة وقوانين الشركة فاذا بقيت الشركة سيبقى هو أيضا ٠ ولكن تنقصه شجاعة توم وأمانته ٠

ان The Grapes of Wrath كما توحى هذه التعليقات على فصول المقدمة يمكن أن تقرأ ليس فقط باعتبارها قصة ، وانما أيضا باعتبارها وثيقة اجتماعية عن تلك الفترة ٠٠ أو تقريرا عن أحوال القحط والمشاكل الاقتصادية وحياة صغار المزارعين ٠٠ وهذا المستوى أو التقرير ناحية حيوية من القصة ولا ينفصل عن المستوى أو التقرير الروائى ٠٠ فالوثيقة توضح طبيعـــة الأسرة وحياة المزرعة الصغيرة وأيضا طبيعة الأفكار الكامنة ٠٠ ومن بين أهم الأفكار الفكرة الزراعية التقليدية للحيـــاة الريفية البسيطة القائمة على مبادىء الحقوق الطبيعية ٠ فهؤلاء الذين يعيشـــون ويعملون على الأرض ٠٠ الذين يدفعون لها دمهم وعرقهم وجهدهم يملكون الأرض ٠٠ ان مولى جريفز يعتقد هذا وكذلك آل جود الى حد ما ٠٠ وطريقة الحياة هذه مهددة من الطبيعة وبصورة أبشع من تقليد جديد ٠٠ تقليد حديث الى حد كبير ظهر من جديد فى السنوات الحديثة : انه الجمع بين المزارع الكبيرة والمؤسسات المالية ٠

ان شتاينبك الذى يتعاطف بقوة مع التقليد الأول وينتقـــد بمرارة التقليد الثانى بمسرح المواجهة بينهما فى الفصل الخامس عندما يطرد الملاك والبنوك والجرارات المستأجرين من الأرض ٠ ان البنك أو الشركة وحش يعيش على المكاســـب والذين لا يحققون مكاسب يتعرضون للطرد ٠٠ ان كل شيء آلي وغير شخصى كما يشرح الملاك ، والخطأ لا يقع على أحد ٠

ويبرز عواقب الاشتباكات بين هذه التقاليد والقوى آل جود الذين يحرمون من منزل الأسرة فيقيمون مؤقتا فى منزل العم جون الذى يفقدونه أيضا بعد قليل ، فيجتمعون حول رمز آخر لحالة الأسرة ‥ وهو **هدسون سوبرسكى** الذى يرممه **بابا وآل** وهو ليس معجزة فى المهارة أو البناء ، ولكن يمكن أن يكون مأوى ونقلا للملكية ٠

ويحدث آخر اجتماع للأسرة على الأرض حول الهدسون وكما يمضى ، تمضى الأسرة ‥ والهدسون المكدس بـ ١٣ شخصا وصناديق الملابس وآلات المطبخ وأيضا بالمراتب والكراسى وخيمة وبرميلين من لحم الخنزير الطازج المملح ، يعتبر بديلا مؤقتا ونسخة من المنزل المتحرك فى المناطق القاحلة فى الحقب التالية ‥ كما أنه العربة المغطاة لمهاجرى الكساد ٠

ويقطع آل جود حوالى ١٨٠٠ ميل فى رحلتهم نحو الغرب عبر أجزاء من سبع ولايات من تكساس وأوكلاهوما ، وكنساس وأركانساس ، ونيومكسيكو وأريزونا وكاليفورنيا » ٠ ان الأرض الفسيحة التى عبروها فى الفصول بين ١٢ و١٨ مرصوفة بأسلوب ويتمان ، ويها أسماء أماكن وطرق ولايات وطرق سفر ، ووصف للطريق ٦٦ وهو الطريق الأساسى المتجه الى الغرب ويبدأ بالنسبة لآل جود عند ساليزو « انه طريق أشخاص يرحلون ‥ طريق لاجئين من الغبار والأرض المنكمشة ‥٠ الملكية المنكمشة » ٠ والتعليقات الشاعرية عن الأرض التى يمر بها الطريق ٦٦ لها تأثير كبير لأن أسماء الأماكن غالبا ما تكون الأسماء الأصلية للولاية أو المنطقة المحلية ، كما أن الايقاعات واللغة الاصطلاحيـــة المستمرة تخلق شعورا بالسعة والانبساط ‥

وينضم الى آل جود والى أسر من ريف أوكلاهوما الأحمر

والرمادى آلاف يصلون الى الطريق ٦٦ من مئات المدن والطرق : « ٢٧٠ من ماكليستر ٠٠٠ ٨١ من شلالات ويشيتا جنوبا ٠٠ وهيدرو والك سيتى وتكسولا وتنتهى أوكلاهوما ٠٠ وتأتى الآن الجبـــال المرتفعة هولبروك وونسلو وفلاجستاف فى الاريزونا ٠٠ ثم الهضبة الكبيرة التى تنطوى مثل نتوء أرض ٠٠ ثم من جبال أريزونا التى حطمتها الشمس الى كولورادو ٠٠ وهذه هى نهاية أريزونا ٠٠٠ وهناك كاليفورنيا أعلى النهر ٠٠٠ »

ويبدأ كل فصل أوسط بوصف لأرض يراها آل جود لأول مرة وهم فى الطريق ٦٦ ٠ والمنطقة الفسيحة التى تبدو بلا نهاية توحى بحجم ومدى المشكلة فهى ليست اقليمية فقط ولكنها قومية أيضـــا ٠

كانت هجرة مئات الآلاف الى الغرب ظاهرة زراعية كبرى فى الثلاثينات ٠٠ وتصوير شتاينبك لتلك الظاهرة مثل آخر على أن The Grapes of Wrath نوع من الوثيقة الاجتماعية ٠ وكانت الصحف والمجلات فى ذلك الحين تقدم تغطية يومية وأسبوعية لهجرة فريدة من نوعها فى بلد هجرات بدأت فى ١٧٠٠ بالرحـــــلات الى الغرب داخل وادى أوهايو ومناطق جنوب الأيلاش وتشمل سيل المهاجرين الى مناطق الذهب فى ١٨٥٠ ، والهجرات والمستوطنات التى أعقبت ذلك ٠ وقد نشرت مجلة فورشون فى عـــــام ١٩٣٩ مقالا بعنوان « انى لأتساءل ٠٠ الى أين نستطيع الذهاب الآن » يصف مهاجرى الثلاثينـــــات وخلفياتهم وتجاربهم واستقبالهم فى كاليفورنيا ٠ وقال محررو المجلة أن المهاجرين ليسوا من النوع الذى اعتاد الهجرة ، وانما من النوع الذى اضطر الى الرحيل بعد أن فقد الأرض والعمل وأرغم على اقتحام الحياة ٠ ويعيد شتاينبك تلك الحياة مرة أخرى فى صفحات The Grapes of Wrath

معتمدا على مصادره الخاصة وسنوات تجاربه مع المهـــاجرين والمناطق الريفية • وفى الفصول الوسطى لا يلقى سيل النـــاس المعدمين ترحيبا من سكان الولايات المختلفة •• وتدل مئات العربات والسيارات التى ترحل يوميا على عدم الاستقرار الاقتصادى ،وهى لا تجلب عملا كثيرا سواء كانت تسير فى الطريق ٦٦ أو فى أى طريق آخر •• ويصف شتاينبك بطريقة رائعة ردود فعل صـــغار رجال الأعمال المجهولين الذين لا يعرفون التساهل ويكسبون من بيع الأطعمة أو قطع غيار السيارات ويتحكمون فى الأســـعار والتكاليف • كما أن كبار رجال الأعمال أيضا ينبذون الغرباء الذين يرمزون الى المتاعب الاقتصادية بالنســـبة لهم مثل الضرائب المرتفعة واتحادات العمال القوية وتدخل الحكومة •

ان تفسيرات شتانبيك للمنازعـــات ليست مقنعة تماما لأن الأفكار والوثائق تميل الى المبالغة فى التبسيط فى بعض الأحيان كما فى الفصل الرابع عشر اذ يقول ان الأثرياء ليسوا جشعين كما أن المعدمين ليسوا مستحقين •• وتحمل الفصول الاضافية تحذيرات متنوعة ان « كبار الملاك » يجب أن يتعلموا التمييز بين الأسباب « والنتائج » فالاتحادات والضرائب وآلاف المهـــاجرين ليسوا أسبابا وانما نتائج ، فى حين أن عدم كفاية الأطعمة والناس أسباب • ويجب أن يدرك كبار وصغار الملاك أيضا أنه اذا حدث ونظم المهاجرون تهديدهم للؤسسات المالية سوف يصـــبح أكبر بكثير •• ان كروم الغضب المجازية تنضج •

وبينما توحى الأسر المجهولة بمـــدى المنازعات الاقتصادية والاجتماعية يبرز آل جود بقوة مثل هذه المنازعات •• ان جزءا هاما من القصة وثيقة اجتماعية ، ويظهر آل جود على مســتوى روائى أكثر كنظراء ليهود العهد القديم وهم ينهمكون فى البحث

عن طريقة أفضل للحياة • انهم يمرون بأهوال كثيرة ، ومما ينذر بالكوارث أن أحد أفراد جود يموت قرب بداية الرحلة ويمـــوت شخص آخر قرب النهاية • ولا يستطيع الجدان الحياة مدة طويلة بعد انفصالهما عن الأرض • وأثناء الرحلة ينظر الى آل جود مثل اليهود القدامى بالأهمال والاحتقار والعداء • وتوجد أيضا مشاكل داخل الأسرة • ان روز أوف شارون مثلا مشغولة بوضعها ومتاعب الرحلة وأحلامها عن المستقبل ، ولا تقدم مساعدة كبيرة لأى شخص فى الهدسون • أمـــا زوجها كونى الـــذى كان يريد البقاء فى أوكلاهوما فانه ينطوى على نفســـه ولا يتكلم كثيرا •• وخططه للحصول على عمل فى الاذاعة فى أى مكان يمهد لاختفائه فيما بعد • ويبدو العم جون مصابا بخيبة أمل ، بينما يبدو الصغيران روثى ووينفلد قلقين غالبا •

وفى بعض الأحيان تكتشف الأسرة أنها لا تستطيع أن تعمل كل شىء وحدها ، ويزداد هذا الادراك بعد أن تلتقى بأسرة ولسون وتفاجأ بأن الجد يموت • ويقدم ال ولسون التضحية والمعونة المادية وفى مشـــــهد التعاون الجمـــاعى هذا يوضع الرجل المحتضر على فراش آل ولسون ، ويغطى ببطانية فى خيمتهم ، وبعد موته يقوم رجال جود بحفر القبر ودفنه ببطانية ولسون ، ويضعون صفحة من الانجيل على الجثة •

وهكذا تندمج شخصيات الأسرتين ، وعندما يجتمع الجميع حول القبر يستمعون الى جيم كازى وهو يتلو صلاة اميرســـونية (نسبة الى الفيلسوف الأمريكى اميرسون) • وبعد ذلك يقدم جيم عزاءه لمسز ولسون التى قدمت عزاءها قبل ذلك لماما جود •• وفى هذه المرحلة نجد الأسرة لا تزال قادرة على أن تدير شئون نفسها بنفسها وتتصدى ماما جود لتوم وجيم اللذين يريدان تقسيم الأسرة

الى قسمين ، وتطلب من امرأة جهونا مغادرة الخيمة وتثور على نائب الشريف ·

ويقوم رجال الأسرة بمساعـــدة وأحيانا بتحريض جيم كازى ورغم أن بابا جود يجبن ويضعف فى الخلافات مع ماما الا أن حصافته وثباته يعوضـــان عن قلق جون وعدم اكتراث كونى · أما توم وآل فانهما بدورهما يعوضان عن تردد الأب وذلك باصرارهما على ترميم وبقاء الهدسون وولسون دووج ·· وتصور المركبتان وخاصة الهدسون تضحيات ومهارات أخوين ، فيسيطر كل منهما على مرارته وشعوره بالنقص أو احباطه الجنسى حتى تمضى الأسرتان فى طريقهما · وينس توم أحيانا أن السجن أفرج عنه مؤقتا بشرط اثبات حسن السير والسلوك ، ويقوم باصـــــلاح أشياء عندما لا يستطيع آل · أما آل الذى يحاول أن يثبت وجوده فانه يعلم من توم أنه أثبت وجوده بالفعل ·· وخلال الرحلة يتعلم توم من التجربة ويهتم بكل شىء مثل اصلاح سيارة ، أو اصلاح قطعة حديد صغيرة ، أو اعداد مكان للاقامة ·وعندما يتضايق لا يتردد فى تأنيب أشخاص مثل عامل فى محطة بنزين ، أو بائع قطع غيار مستعملة ، أو صاحب معسكر · وعندما يقول المفكر جيم أن فى البلاد حركة ، وأن شيئا يحدث ، وأن الناس لا يفهمون يقول له توم انه لا يستطيع أن يفكر فى هذا أو يقلق عليه ، وأنه لا يشغل نفسه بشيئين فى نفس الوقت ، وأنه سيقفز فوق الأسوار « عندما أجد أسوارا أقفز فوقها » ·

وذلك الموقف العام الذى يتخذه معظم الآخرين فى الأسرة يجب أن يتغير حتما · فهناك متاعب أكثر تنتظرهم كما تقول محذرة بعض الشخصيات الثانوية التى تظهر على الطريق ٦٦ وهى فى العادة شخصيات رمزية ذات بعدين تعانى من ضغوط اقتصادية · فصاحب محطة البنزين المذعور الذى يشعر بما يحدث يذكر آل جود

بمتاعبهم ، فى حين أن الرجل الأعور والرجل الذى يرتدى ثيابا رثة نموذجان من الشخصيات الفاشلة التى يقدمها شتاينبك · ونلاحظ أن نزعة هروب الأول ومصائب الثانى تمهد لخسائر وكوارث آل جود التى تحل فيما بعد · ان الرجل رث الثياب يحذر آل جود الذين لا يكترثون بالتحذير · وصاحب المعسكر يمثل عقلية سوف تعنى المتاعب فيما بعد · فهو مالك صغير ويصر على الدفع قبل أن يعطى أى شخص بوصة واحدة ! وعندما يعسكر آل جود على ضفة نهر كولورادو يتلقون مزيدا من التحذيرات من الرجل العادى نسبيا وابنه وأيضا من امرأة جيهوفا والضابط وهمـــا نموذجان مشئومان للتعصب والوحشية ·· وعلى ضفة النهر أيضا يسمع آل جود لأول مرة الاسم الغريب « أوكى » (*) ·

فى الوادى الأوسط الكبير ـ أو فى حوالى ٣٥٠ ميلا منه تمتد من تيدلز قريبا من حدود أريزونا حتى يكسلى ـ تنتهى الهجرة الى الغرب بالنسبة لآل جود ، كما انتهت بالنسبة لمئات الآلاف المهاجرين فى الثلاثينات · وتشهد التقارير فى الفصول بين ١٩ : ٣٠ على الأحوال الماضية والراهنة فى الوادى باعتبارها قصصـا ووثائق اجتماعية ·· ومن الواضح أن الأرض ليست أرض « كنعان » وليست « أرض الميعاد » بالنسبة لآل جود على الأقل ، والأرجح أنها ليست كذلك بالنسبة لنظائرهم الحقيقيين ·· لقد ظلت الأرض تخص سكانا آخرين لعشرات السنين قبل ذلك · ويقدم الفصل التـــاسع عشر أوصافا بشعة للملكية المكسيكية فى أوائل الـ ١٨٠٠ ووصـــول الأمريكيين أو « البرابرة الجدد » واستيلائهم تدريجيا على الأرض وتاريخ نجاحهم وتوسعهم · ويصف الفصل الحـــادى والعشرون

(*) الاوكى هم العمال الزراعيون المهاجرون الذين رحلوا عن أوكلاهوما بسبب القحط فى الثلاثينات ·

والفصل الخامس والعشرون المهاجرين البرابرة الذين وفدوا بعد ذلك فى الثلاثينات ، ومعـــاركهم مع كبار الملاك الذين لا يهتمون « بالاوكى » أو احتياجاتهم · وبينما يسيطر الملاك وعملاؤهم على أكبر مساحة من أحسن الأراضى لا نجد الا عددا قليلا من صغار الملاك ·

لقد اختفت بالفعل الطريقة الزراعية للحياة بالنسبة للمهاجرين خاصة ·· والأسر المجهولة فى الفصول الأولى التى تظهر ثانيـــة فى الجزء الثالث لا تكاد تجد شيئا من تلك الطريقة ، وهى تواجه عقبات أكثر من العقبات الموجودة فى In Dubious Battle
Of Nice and Men وفى In Dubious Battle نجد الرجال وحدهم هم الذين يعانون الى حد كبير · أما فى The Grapes of Wrath فان أسرا بأكملها تعمل نظير أجر قليل أو تشقى بدون هذا الأجر ·· وهى لا تعيش عادة فى معسكر منظم كما يحدث فى قصة الأحزاب ولكن فى مخيمات من الخيش وتقتـــــات على « العجين المحمر والأشواك » · وكثيرا ما تتعرض معسكراتها للهجوم أو حتى للحريق من الكاليفورنيين الغاضبين · ولا يبدو أن مشاكل المهاجرين تقل بل تزداد · فبعد أن تتغلب الأسر فى الفصل التاسع والعشرين على القحط وغيره تواجه الآن سيولا من الأمطار ونقصا فى العمـــل وزيادات فى العدواة والمرض · وتشتد المعارك بين الجانبين وتزداد عنفـــــا ·

ان عنف التصوير لا يعبر فقط عن الغضب الذى لا شك أن شتاينبك قد شعر به ازاء الأحوال التى لاحظها فى كاليفورنيا ، ولكنه يشير أيضا الى التركيز الرمزى والطبيعى على متـــاعب المهاجرين ، وحتمية الصعوبات المستمرة وعجزهم عن عمل أى شيء

يذكر لحلها ·· ويظهر مثل هذا التركيز قبل ذلك فى القصة ، ولكن التركيز فى ذلك الجزء كما قال بعض النقاد لا يخفف حدته فى الواقع وجود العوامل التى يمكن أن تخفف من البشاعة قليلا ، والتى يمكن أن تشير الى احتمال أن يقوم آل جود بأى نوع من العمل الايجابى ·

ويمكن بحث هذه المسألة المعقدة باختصار أولا فى نطـــاق تجارب آل جود فى المحطات أو المعسكرات المختلفة فى كاليفورنيا · ان هذه المحطات تعكس ظاهرة القمع ، ولكنها لا تخلو من عناصر تبعث على الاستقرار والطمأنينة · والصورة أبسط مما تبدو عليه ·· ان معسكر هوفرفيل لا يقدم عملا فيرحل كونى وكازى ولكن توم وآل يستجيبان بصورة طيبة ، وتقول ماما للأسرة أنهم « الناس » سوف يمضون فى الطريق ·

ان حلقة ويدياتش التى تمثل أحد أشكال الفريق أو الشخصية الجماعية تتطلب تضحية ببعض احتياجات الأسرة · ويثبت آل جود أنهم على مستوى الظروف على أية حال ، ويستعيدون كبرياءهم رغم أنهم لا يجدون عملا كثيرا · وفى معسكر هوير يتوفر العمل والطعام الأفضل · ولكن ثمنهما هو تفجر العنف الذى يودى بحياة جيم ويغير حياة توم ، ومما يثير السخرية أنه يزيد من قوة عزيمة الأسرة · أما معسكر السيارة البوكس فانه يقدم المأوى والعمل والطعام والجيران المتعاونين ، ولكن يتعين على توم أن يرحل كما تفقد شارون طفلها · ان تصميم توم نفسه يقوى من عزيمة الأسرة ولكنه يزيد الأسرة ضعفا ·· ولا يستطيع بابا جود وجون وآل منع مياه الفيضان وانقاذ مسكن الهدسون ، ومع ذلك لاشىء يقهر روحهم وعزيمتهم · وفى الجرن الأسود وهو المأوى الأخير والمؤقت تتضامن ماما جود وروز أوف شارون وتقدمان للرجل الذى يموت جوعا ما لم تستطيعا عمله للطفل الذى ولد ميتا ·

على أن شخصيات هذا الجزء ـ باستثناء شخصية واحدة ـ لا تبين دائما تعقيد أو واقعية الشخصيات فى الفصول الأولى ، وذلك بسبب اعتماد الكاتب كثيرا على العناصر الرمزية أو الفكرية. وتستثنى من ذلك ماما جود التى تبدو واقعية ويمكن تصديقها بوجه عام سواء وهى تنصح روز أوف شارون ، أو وهى تبحث عن روثى ووينفيلد ، أو وهى ترغم بابا جود أو وهى تتساءل عن توم .. انها أقوى شخصية فى القصة . وهى أم أقوى كثيرا من مسز ويكس ومسز منرو فى The Pastures of Heaven اللتين تعيشان حياة مركزة فى المجتمع مثل زوجيهما . وتشـــبه ماما جود راما واين فى To a God Unknown من حيث تفهمها للرجال وحقائق الحياة رغم أنها ينقصها احتقـــارها للرجال .. فكلتا السيدتين تتسمان بحبهما القوى للأطفال مثل مسز تفلين أم جودى فى قصة The Red Pony .. وهى أمرأة متزنة أخرى وقادرة ورحيمة .. ولكنها لا تواجه مشاكل وأعباء كثيرة فى حين أن ماما التى تواجه مثل هذه العقبات قادرة على التكيف بمعظمها . فهى تدرك أنه فى أوقات الشدة وفقد أفراد من الأسرة يأتى الغير وليس الأسرة أولا .. وهى مثل راما ومسز تفلن تتسم بالحكمة بالنسبة لطرق الناس والنساء وتعبر عن ايمان فى ادراك المرأة لقـــوى الحياة الأبدية وفى أهمية الشجاعة والصمود .

ورغم أن الشخصيات الأخرى لا تنقصها الصـــلابة والهدف أحيانا الا أن التركيز الرمزى على أفكارها ومواقفهـــا يقلل من واقعيتها الى حد كبير .. فنجد أن نضوج بابا المتقطع فى الفصول الأخيرة لا يشير الى ضعف الأعصاب أو البصيرة ، بقدر ما يشير الى الموضوع العام ، وهو أن الرجل الذى يفقد أرضه قد يفقـــد شخصيته أيضا . ويلوح توم جود وجيم كازى فى صورة أهم بكثير

فى الفصول الأخيرة فيظهر جيم خارج معسكر هوبر كزعيم اضراب من نوع جديد لا يوجد فى In Dubious Battle ‚ ·· فهو شخص يجمع بين التعاطف نحو العمال والأطفال ، وبين الأفكار عن التضامن والتضحية · وفى ظهوره لآخر مرة يرمز جيم الى كل من الآراء المسيحية ـ فنجد أن كلماته الأخيرة تشبه كلمات المسيح ـ والى ظاهرة ميتافيزيقية براجمانية شرحت لتوم منذ شهور على طريق أوكلاهوما المليء بالغبار ·· ويجتمع تلميذه توم وماما جود فيما بعد فى الكهف ، ويتحدث توم ببلاغة عن المستقبل وعن الناس الذين « يعملون سويا من أجل مزرعتنا جميعا وأرضنا جميعا » · كما يركز أيضا على التعاون لأن روح الشخص ليست روحه فقط ولكنها جزء من المجموع · وفى شرحه لأفكار ايمرسون وويتمان التى يلقنها جيم يدعو توم الى فكرة جديدة لتوزيع الأرض · واذا عاش يمكن أن يصبح زعيما فيما بعد فى أحد معسكرات الحكومة الكبيرة ·

ومع ذلك تقل واقعية وصدق المشهدين بسبب التصوير القصير أو الذهنى للمكان والشخصية · ويبدو كل من المشهد خارج معسكر هوبر ومشهد الكهف مكانا لعرض الآراء بقدر ما هو مسرح لتمثيلها · ان الأفكار متقدمة بصورة قوية ، ولكن الشخصيات ـ وخاصة خارج معسكر هوبر ـ ـ تبدو غامضة ·· ان جيم مثلا لا يعتبر وجودا بقدر ما هو صوت مقنع ومألوف وهو لا يظهر فى الحقيقة ·· فى حين أن وجود ماما جود وحدود الكهف يجعل المشهد الآخر ملموسا أكثر · كما أن توم شخصية مألوفة ومع ذلك فان أفكاره التى تستحق الثناء تقنع نظريا أكثر مما تقنع واقعيا ·· لأنه منذ أحداث العنف فى هوبر بوجه خاص لم يظهر توم ليفكر مليا فى الأفكار والمعانى ، ويحاول وضع فلسفة أو موقف عام ·· بتعبير آخر لم يقدم التمهيد الكافى لبعث توم فى الكهف بمضمونه الفرويدى ·

ان أحلام وهزائم آل جود والمعارك بين الأثرياء والمعدمين والبحث عن أرض وشخصية ناضجة ٠٠ كل هذا يصل الى ذروته في الجرن الذى أغرقه المطر ، بينما تقوم روز أوف شارون بارضاع رجل يموت جوعا ٠ وقد نال هذا المشهد العظيم ثناء كبيرا لتصويره التعاون والتضحية ولبراعته الفنية ٠٠ كما تعرض المشهد للنقد أيضا لوجود عيوب فى كلا الناحيتين ٠٠ ويبدو أن العيب الأساسى هو أحد الدوافع أو المبررات ٠ فرغم أن روز أوف شارون كانت قد غامرت وتطوعت لجنى القطن ، وواجهت آلام الولادة بشجاعة، الا أنه ينقصها الثقة والاستعداد ومساعدة الغير على النحو الذى بدت عليه فى الجرن ٠ باللغة الرمزية قد تكون صورة روز أوف شارون مقنعة ولكنها ليست كذلك باللغة الواقعية ٠

ان مشهد الجرن يساعد على التصوير والربط فى الموضوع، فالنساء الساهرات المجهولات اللاتى ظهرن فى الفصل الأول حل محلهن أم وبنت تحـــاولان فى بلد غريب انقـاذ رجــل يحتضر ٠ ويمكن اعتبـــار تصرف روز أوف شــــــارون نوعـــا من تقمص الروح والجسد أو منح الحياة ٠٠ ان آل جود والأب الذى لم يذكر اسمه والابن تندمج سويا فى أسرة واحدة ، وتتحقق أفكار ماما الأولى بالنسبة للتغييرات فى الأسر ٠ ورغم أن الجرن والأرض ملكية خاصة الا أن ضغوط الطبيعة والمجتمع أرغمت المعدمين على التعاون من أجل البقاء ٠٠ وقد أدت لقاءات الأسر على الطريق ٦٦ الى صيغة جديدة من التعاون تندمج فيها شخصيات وأعمال الأسر، ويضحى فيها الأفراد لمصلحة الآخرين ٠ ويمكن مقارنة تضحية روز أوف شارون بتقدم توم للزعامة والوعظ ٠٠ ان انجيل كاسى ورؤية توم جود وقوة وتضحية النساء وانسانية شتاينبك الأساسية يحظى ببعض الواقعية فى هذا المشهد الأخير ٠

ابطال ومجتمعات فترة الحرب

فى ربيع عام ١٩٤٠ قرر شتانبيك القيام برحلة ممتدة جنوب كاليفورنيا ليهرب من ضجة الدعاية والتكريم التى صاحبت النجاح الكبير لـ Grapes of Wrath ، ويستمر فى استكشاف ودراسة البيئة والحياة على الشاطىء مع اد ريكيتس ، وكان الرجلان قد استكشفا فى السنة السابقة الحياة على الشاطىء شمال سان فرانسسكو ، وقررا القيام برحلة أطول ٠٠ وتم اعداد كل شىء للرحلة بعناية ٠ فاستعلما عن أشياء من وزارة خارجية الولايات المتحدة ، وحصلا على تصريح من الحكومة المكسيكية ، وفحصا عدة سفن قبل أن يختارا واحدة منها ! ووجدا طاقما جيدا وكانت هذه المسألة هامة أيضا ٠٠ كانت السفينة باسم « وستر فلاير » وهى مركب صيد جديدة طولها ٧٦ قدما وفى حالة ممتازة وقد استأجراها من المالك والقبطان ٠ وقد اتسعت للقبطان وريكيتس وشتانبيك ومهندس وبحارين وكارول شتانبيك ٠ وقد زودت بكل ما يجعل ركابها مشغولين وفى صحة جيدة لرحلة تقطع أكثر من ثلاثة آلاف ميلا ٠ وفى ١١ مارس ١٩٤٠ أبحروا من ميناء مونتيرى واتجهوا جنوبا على طول ساحلى كاليفورنيا والمكسيك ثم شمالا داخل الخليج ، وكانوا يتوقفون كل يوم تقريبا لجمع العينات وعادوا الى مونتيرى فى ٢٠ ابريل ٠٠ وصدر الكتاب عن الرحلة بعنوان Sea of Cortez عام ١٩٤١ ويتكون من جزأين : التقرير الروائى أو المقال الذى يصف الأنشطة اليومية للرحلة ويتضمن آراء وتأملات حول أمور شتى ، والكتالوج الموضح عن حياة الحيوانات الذى يتضمن معلومات فنية متقدمة عن مئات العينات التى وجدوها فى الخليج ٠ لقد كان المعتقد حتى عهد قريب أن شتانبيك هو الذى كتب التقرير ، وأن ريكيتس هو الذى جمع الكتالوج الفنى ٠ وقد اثبت ريتشارد أستر مؤخرا أن هذا الاعتقاد غير صحيح ، وبعد

أن درس كل المواد اللازمة استنتج أن التقرير وضع بالتعاون بين شتاينبك وريكيتس ٠٠ لم يكن شتاينبك قد احتفظ بأية مذكرات خلال الرحلة ولكن كلا من القبطان وريكيتس جمع فكرة ٠٠ وقد كتب شتاينبك تقرير الرحلة الطويلة معتمدا على المفكرة المفصلة التى أعدهاريكيتس وعلى ذكرياته وأحاديثه معه ٠٠ ويوضح أستر أن شتاينبك هو الذى خطط بدقة وكتب التقرير ، ولكن بصمات أفكار ومواقف صديقه تظهر بوضوح فى سياق التقرير كله ٠ ان طبيعة العمل معقدة ومتداخلـــة ولذلك سيشار الى الراوى على أنه شتاينبك لمجرد تبسيط الأمور ٠٠

ان Sea of Cortez عمل رائع يجمع بين صفات الكتب القصصية والأعمال غير القصصية ، ويمكن مقارنته فى هـــذه الناحية بـ Walden لتورو « وموبى ديك » لملفيل ، وبقصص أخرى رويت بضمير المتكلم وتضم رحلات ودراسات لمســاحات مائية والكائنات التى تسكنها ٠ كما تتضمن قدرا كبيرا من طاقة التأمل ، وخليطا من الأشياء الرومانطقية والواقعيـــة والمثيرة للشكوك ٠ وهناك تشابهات بين أدوار ومواقف الرواة بضـــمير المتكلم ، وبين تكوين وبناء المواد فى موبى ديك و Sea of Cortez وتشمل الصفات القصصية فى Sea of Cortez القصص التى يمكن أن تمثل التجارب الواقعية والخيالية على السواء ٠ فهناك الراوى الذى يعتبر شاعرا وعالما وكاتبا بطريقة Ishmael أو فى تلك الحالة بطريقة شتاينبك ٠ وهناك مشاهد الحوار والأحداث التى تشمل معظم المسافرين ٠٠ وفى بعض الأحيان يمكن اعتبار الراوى باحثا بالمعنى الرومانطيقى لدراسة ما وراء الطبيعة والمادة للمعنى الشـــامل أو الأسطورى ٠٠ والعناصر غير القصصية الواضحة أكثر فى Sea of Cortez عبارة عن الوصف والعرض والتحليل التى يمكن أن تكون حتى فى القصص موضوعية

أو حقيقية أساسا بدون أن تبدو مفروضة على النص ، وعنصر الراوى باعتباره عالم أحياء عاديا يقدم عموما عروضا موضوعية لعينة ، وأوصافا لفصيلة وتقارير عن بيئة الشاطىء وأحواله ، وتحتوى معظم الفصول على مثل هذه المواد ٠

وصيغة البناء الأساسية لـ Sea of Cortez هى محاولة الراوى لتصوير « صيغة واقع يشكله ويتحكم فيه العقل » ويفسر شتاينبك تصميم الكتاب كما يلى : « لقد قررنا أن نتركه يصوغ نفسه : ان حدوده مركب وبحر ، ومدته ستة أسابيع ، وموضوعه كل شيء يمكن أن نراه ونفكر فيه أو حتى نتخيله ٠ أما مداه فهو مدانا بدون تحفظ » ٠ وهذه التعليقات الرومانطيقية أساسا تذكرنا مرة أخرى بمؤلفى ورواة Waldes و Moby Dick اللذين اعتبرا تجاربهما عن الطبيعة واعادة صياغتها لها بطريقة خلاقة مسألة عضوية الى حد كبير ٠ ولكن اذا تمسكنا أكثرباللفظ نجد أن قدرة الراوى على وصف الأشياء الملموسة والبراجماتية بدقة سلسة ، ووضع هذه العناصر ، والعناصر التى تثير جدلا أكثر داخل صيغة روائية يوما بيوم ، وجمعها كلها داخل حديث ، يبدو على التناوب حقيقيا ! وشاعريا و جادا ومرحا ، وتحليليا وشاملا ٠٠ كل هذا يؤلف الأشياء الأساسية للوحدة في كل الكتب الثلاثة ٠

ويمكن الافادة من دراسة نواح كثيرة لـ Sea of Cortez وسوف تدرس ناحيتان منها هنا ٠

ان المجتمعات فى الكتاب تصور الى حد ما الأفكار البيولوجية التى ساعدت فى صياغة قصص شتاينبك فى الثلاثينات وبعد ذلك ٠ ومجتمع السفينة نفسه ليس مثلا على رجال الفريق أو الوحدة

المتناسبة بمعنى تكنيكى ، فالأشخاص ينسجمون مع بعضهم لأنهم حرفيون لهمأغراض واهتمامات مشتركة ؛ لقد تم اختبارهم بدقة لمهمة معينة وهم يؤدون أعمالهم على أكمل وجـــــه ٠٠ على أنهم لا يخفون شخصياتهم تحت شخصية فريق ٠ ويتولى شـــتاينبك وريكيتس باعتبارهما خبيرين فى حياة الكائنات على الشاطىء جمع وفحص وتصنيف مئات العينات ، كما يعلمان الآخرين جمعها وفرزها ٠ أما تونى بيرى القبطان وتكس المهندس فهما شخصان على قدر كبير من الكفاءة ويؤمنان بالمهارة والخبرة ٠ فى حين أن تاينى وسياركى وهما بحاران وصيادان على متن المركب يتسمان بالكفاءة والطيبة ٠٠ ونظرا لأن هذين الرجلين تنقصهما المعرفة والاهتمام التكنيكى الذى يجعل الآخرين مشغولين ، فانهما يقومان أيضا ببعض أعمال الطهو والتنظيف ، كمـــا يشتركان فى شرب البيرة ٠٠ وتعتبر محاولاتهما لصيد الأسماك الضخمة بالحراب أشبه بوقفات تتخلل التقارير الروائية ٠ ويعمل الرجال الست سويا فى انسجام ، ويندر أن يستريحوا أثناء فترات جمع العينات ، وهم باختصار يكونون فريقا لطيفا ٠ والمـــلاحظ أنه لا يشار الى كارول شتاينبك أو ريكيتس بالاسم ، كما أنه لا يشار الى كارول الا بطريقة عابرة وغير مباشرة ٠ ولكن وجود ريكيتس ومواقفه واضح فى سياق القصة كلها ٠

وهناك مجتمع كبير وغير محدود بعض الشىء يتألف من الأهالى الكثيرين الذين يلتقى بهم الرجال فى منطقة الخليج ، وبينهم أشخاص من القرى وزوار للمركب ومسـئولون رسميون يستقبلونهم على الشاطىء ، وفى كل محطة تقريبا اذا كانت هناك قرية مجاورة يأتى صبية من كل الأعمار والأحجام ومعهم عينات مما يبيعونه أو لمجرد حب الاستطلاع ٠٠ وفى سان لوكاس يوجد أيضا الشبان الذين يقفون فى انتظار أن تحدث معجزة ويشترى لهم أحد بعض المشروبات ٠

وفى بويرتو اسكنديدو يقابل الأمريكيون المدرس المحلى وغيره الذين يأخذونهم لصيد الأغنام فى الجبال المجاورة ٠

ان شتانيبك لا يتناول الأهالى بمعنى رجـــل الفريق ، ولكن تعليقاته عنهم ليست لطيفة بالضرورة ٠٠ وتدل التناقضات المتوقعة بين الأمريكيين والأهالى على بساطة وهدوء الحياة التى يعيشونها ، فحياة القرية فى لوريتو مثلا خالية من تعقيدات رفاهية التكنولوجيا والتجارة فى الولايات المتحدة ٠ ومع ذلك يستنتج شتاينبك أحيانا أن السعادة والتعاسة لا تختلفان فى المجتمعين ، وأن حياة الأهالى « مليئة بالكلام الأجوف مثل حياتنا » وهو اعتراف صريح بنقـــاط الضعف فى المجتمعين ، وتعليق متحفظ على نقاط القوة ٠

وأبرز مجتمع فى Sea of Cortez هو الطبيعـــة بالطبع ٠٠ الحياة والأحوال على شاطىء الخليج التى تدرس باهتمام والتزام تورو الذى لم يقم بدراسة كبيرة فى بركة ولدن وكان له وقت أكثر للقيام بهذه الدراسة ٠ ان دراسات شتاينبك وريكيتس علمية أكثر كما هو متوقع ، فمعهما على المركب كتب فنيـــة عن الخليج والكائنات الحية التى تعيش فى ينما ، ومعها خرائط صغيرة وكبيرة للشاطىء والمد والجزر ، وأجهزة ممتازة لجمع العينات ، وأوان ومواد حافظة من كل الأنواع ومجهر وغير ذلك ٠٠ وخلال الأسابيع التى يقضونها فى الخليج وبعد ساعات كثيرة من جمع الكائنات كل يوم يستطيعون جمع حوالى ٥٥٠ عينة مختلفة ، ويكتشفون فيما بعد أن ١٠ ٪ منها تقريبا جديدة ولم تسجل وخلال أسفارهم من محطة الى أخرى يرون أيضا كثيرا من سمك القرش والسلحفاة وأنواعا لاتحصى من الأسماك المختلفة ٠ ان الحياة الساحلية نفسها تكون عادة وفيرة جدا وكثيرا ما يحتل نوع أو نوعان منطقة معينة ٠ ولكن الحياة عادة عبارة عن معركة عنيفة تتأثر بعاملين حيويين هما التناسل

والبقاء ٠٠ وموقع أحداث هذا الكتاب هو الشاطىء الممتد مئات الأميال ٠٠ « ان كل الحياة متصلة » كما يوضح شتاينبك مرة تلو الأخرى ، والنقطة الأساسية فى موقف شتاينبك وريكيتس هى أن الرجال الباحثين عن عينات يكونون جزءا من تلك الصلة ٠

ان السمة المميزة للموقف المتصل فى Sea of Cortez هى أنها تمكن شتانبيك من التعليق على أفكار وموضوعات متنوعة تشمل المركب أو مياه الخليج أو أى شىء على الشاطىء ٠ وتشمل الموضوعات شارلز دارون والحيوانات البحرية والنساء فى البحر وقصصا خيالية ورموزا وكتابة علمية وكنائس محليـــة ومحركات زوارق ٠ وتبدو كلها موضوعات ملائمة وتعكس حمـــــاس الكاتب وفضوله ٠ وتظهر كلا الصفتين فى النقاش أو الجدال حول الأفكار سواء كانت علمية أو غير علمية ٠

ان أكثر الأفكار حيوية واتساعا هى فكرة التفكير العلمى التى تعتمد مناقشتها المطولة فى الفصل الرابع عشر على مفكرة ريكيتس ٠ وهذه الصفحات فى Sea of Cortez التى يعتبرها أسترو وفونتنروز هامة جدا لفهم وجهات النظر فى قصص شتانبيك تقوم على أفكار قـــــدمها دوك بيرتون فى In Dubious Battle وموجودة فى قصص أخرى ٠٠ وبناء على شرح ريكيتس بأن هناك « ثلاثة أنواع مميزة من التفكير » يفرق شتاينبك بين التفكير الهادف والتفكير غير الهادف ٠٠ فالنوع الأخير لا يهتم بالأسباب والعرف أو القيم الخلقية ، ولكنه يهتم بالعمليات والعلاقات ٠٠ يهتم بالأشياء كما هى وحسب علاقتها أو صلتها بأشياء أخرى ٠ فيجب دراســـة « أبو جلمبو » الرملى مثلا فى حد ذاته فى داخل بيئته وفى علاقته بالحيوانات الأخرى فى تلك البيئة ٠ وتلك البيئة بدورها يجب أن تتصل بالبيئات الأخرى ٠٠ وهكذا ٠ والانسان باعتباره جزءا من البيئة أو من العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها يحتل مكانا بالنسبة

لكل الحيوانات والأجناس الأخرى ٠ والغرض من التفكير غير الهادف أو التفكير العلمى هو ملاحظة مثل هذه الكائنات العضوية والعمليات بأقص ما يمكن من موضوعية بالنسبة لكيف وماذا ، وبالنسبة للصورة الشاملة وليس بالنسبة للسبب أو لماذا ٠

على أن بعض المعلقين أوضحوا أن الاهتمام بالحقائق والعمليات والصورة الشاملة يمكن ان يؤدى الى أو يشمل آراء غامضة للعلاقات والوحدة ، ويصبح الموقف رومانطيقيا فى التركيز على الشعور وعلى الوحدة العضوية لكل الأشياء ٠٠ وفى التقرير نقرأ ما يلي :

ان اهتمامنا يكمن فى صلات الحيوان بالحيوان ، وعندما يلاحظ شخص بهذا المعنى المتصل يبدو واضحا أن الأجناس ليست الا شولات فى جملة ، وأن كل جنس أو صنف هو القمة والقاعدة لهرم فى نفس الوقت ، وأن كل الحياة متصلة الى الحد الذى تظهر فيه نسبية اينشتاين ٠ وعندئذ لا يصبح المعنى فقط ولكن الشعور بالنسبة للأجناس أيضا مهزوزا غامضا ٠٠ فيندمج الواحد داخل الآخر ، وتذوب مجموعات داخل علاقات عضوية بيئية حتى يحين وقت يلتقى فيه ويتداخل ما نعرفه بأنه حياة ، مع ما نعرفه بأنه لا حياة ٠٠ وانه لشىء غريب أن معظم المشاعر التى نسميها دينية ، ومعظم الصيحات الروحانية الغامضة هى فى الواقع فهم ومحاولة القول أن الانسان متصل بالشىء كله ٠٠ متصل ومتداخل بكل الحقيقة المعروفة وغير المعروفة » ٠

ان هذه الفقرة وأشياء أخرى تقدم القاعدة الفلسفية العريضة التى يكتب منها شتاينبك فى Sea of Cortez ٠٠ انه مستعد لأن يصدر أحكاما أخلاقية بقدر ما هو مستعد لأن يقدم تعليقات موضوعية نسبيا أو علمية ٠٠ ويرجع مرونة الكتاب وسعة مداه الى الرأى

القائل بصلة كل شىء بالآخر ، وطبيعة العمل الذى قدم على حلقات ٠ وهكذا نجد فى فحص شتاينبك للبدايات تقريرا شائقا لصفات الانسان الغريزية قبل البشرية ، وبعضها منسوب لتأثيرات المد والجزر والقمر على كل الأشياء الحية قبل العصر الحجرى ٠ ويناقش تأثيرات أخرى بينها اللاوعى العنصرى ، وثراء الرموز الذى يبدو أنه « زرع فى الأرض الغنية الناعمة لما قبل بشريتنا » ٠

ان كراهية الكاتب للحرب واضحة ٠٠ والانسان الذى يعتبر محاربا بطبيعته يتسم بخاصية « تجعل الفرد ينقض على جنسه هو نفسه ويدمره ٠٠ وليس فقط على جنسه ولكن أيضا على كلمات جنسه » ٠ أما الأمل الذى يعتبره شتاينبك « خاصة مميزة أخرى للأجناس » ٠ فانه لا يجدى كثيرا ٠ فاذا ما استمر الانسان فى الابادة وشن الحرب ، لابد أن يحدث تغيير ليس فى الانسان ولكن فى الأشياء الخارجية « الملكية ، المنازل ، النقود ، مفاهيم السلطة ٠٠ المدن ٠٠ المصانع ٠٠٠ الأعمال » ٠ والتغيير السارى الذى يدينه الكاتب هو الثورة الصناعية التى تؤدى الى نتائج جوهرية ٠ كما أن الميل نحو الجماعية أو الشمولية ــ الجيش الآلى وطريقة قيام كل عامل بعمل معين فى عملية التجميع أمثلة على ذلك ــ يمثل نوعا مماثلا من التغيير ٠ وهو فى نظر الكاتب ينذر بالشر لأن « القاعدة فى علم دراسة الحفريات هى أن الزخرفة والتعقيد يسبقان الانقراض » ٠

وهناك مناقشات تثير الجدل ــ عن التنظيم الاجتماعى والفروض العلمية والسعادة وقرى الأهالى المسالمة ــ تبدو أكثر توازنا ولا تقل تشويقا ٠٠ ان Sea of Cortez الذى يتفاوت نبرته ونظرته من البراجمانية والعلمية الى الشخصية والرومانطيقية يعتبر من أكثر أعمال شتاينبك ثراء ٠

لقد حدث الهجوم اليابانى على بيرل هاربور فى ديسمبر ١٩٤١ وهو الشهر الذى ظهر فيه Sea of Cortez ٠٠ وكان شتاينبك قد بلغ التاسعة والثلاثين من عمره ولا يستطيع الخدمة العسكرية ٠ ومع ذلك قرر أن يقدم خدماته فكتب Bombs Away (١٩٤٢) وهو كتاب ناجح جداً عن تدريب القوات الجوية ، كما قام بتغطية أنباء الحرب كمراسل فى أوربا عام ١٩٤٣ ، وكتب أيضا روايتين احداهما عن الحرب ٠

وقد نبعت فكرة The Moon is Down (١٩٤٢) من محادثات فى عام ١٩٤١ مع وليم ٠ جـ ٠ دونوفان رئيس الـ OSS وقت الحرب حول طرق مساعدة فرق المقاومة فى الأرضى المحتلة ٠٠ فعندما غزت القوات العسكرية الألمانية النرويج فى ابريل ١٩٤٠ أصبحت المقاومة السرية حقيقة من الحياة فى النرويج خلال سنوات الحرب ٠

ورغم أنه لم يرد فى القصة اسم العدو أو البلد الذى يقاوم ، الا أن تشبيهات عامة باحتلال النرويج تظهر واضحة فى القصة وتتركز الأحداث على بلدة ساحلية صغيرة قهرتها بسرعة قوات العدو ٠ ويقوم القائد وهو رجل واقعى ذكى وزملاؤه الضباط باصدار الأوامر من الطابق العلوى لمنزل العمدة ٠ ويحاول سكان البلدة المقاومة عندما يرغمون على العمل فى مناجم الفحم للدولة الغازية ، ويقتل ضابط ، ويحاكم المتهم ويعدم ٠ وتقتل زوجة الرجل ضابطا آخر انتقاما ٠ وتستمر المقاومة ويلقى القبض على العمدة والطبيب ، ويصدر الحكم باعدام العمدة وتنتهى القصة بخطاب العمدة عن المبادىء الديمقراطية ٠

وقد شملت ردود الفعل على The Moon is Down وقت الحرب احتجاجات غاضبة ضد المعاملة اللطيفة المزعومة للاحتلال النازى ،

وثناء كبيرا من المسئولين النرويجيين للوصف الصادق للمقاومة ٠ أما المزايا الأدبية فقد تجاهلها القراء عموما وهم منهمكون فى اصدار أحكامهم على أساس الولاء للوطن والتجارب الشخصية ٠ ومن سوء الحظ أن الرأى الأدبى عن القصة منذ الأربعينات حتى اليوم كان غير مرض ٠ ويبدو أن قدرة شتاينبك على خلق شىء جديد أو مختلف قد فشلت فى كل مرة عام ١٩٤٢ ٠ كما يبدو أن قلة معلومات الكاتب المباشرة هى التى تعيب The Moon is Down وهى تجربته الثانية مع الصيغة المسرحية القصصية ٠ فرغم أن شتاينبك لم يكن غريبا عن العنف والمعارك الجماعية ، الا أنه كان يبعد آلاف الأميال عن الحرب والأحتلال النرويجى ٠ والأرجح أن قلة المعلومات والاعتماد على الصيغة المسرحية القصصية هو سبب ضعف الواقعية بوجه عام ٠ فالبلدة الساحلية نفسها تصور اما بطريقة غامضة أو بطريقة سطحية ، فى حين أن الوصف الذى يجمع العظات والدراما يخلق شعورا بعدم الواقعية ٠ « كانت المبانى القائمة للبلدة الصغيرة ترتدى اجراسا وقبعات وحواجب من البياض ، وكانت هناك خنادق فى الثلوج تؤدى الى مداخـــل الأبواب » ٠ أما الأحداث فلها صفة الصالونات كما هو متوقع : فلا يوجد انطباع كبير عن الواقعية وقت الحرب بسبب التركيز على مشـــاهد وحوار معد أساسا فى منزل العمدة ٠٠ والواقع أن المقاومة النشطة والمعارك تحدث خـــارج المسرح ٠ فنعلم بطريقة غير مباشرة عن الغزو واعـــدام اليكس ، ومواجهة الاغراء والقتل بين مولى والنقيب تندر ، دعك من عمليات النسف والهبوط بالمظلات وعمليات المقـــاومة الأخرى ٠ كما أن الأطراف المتعارضة فى The Moon is Down ينقصها صدق وواقعية الأثرياء والمعدمين فى In Dubious Battle ٠٠ ويعيش سكان المدينة بحفنة اليد وليس بالآلاف ٠٠ أما الأشخاص المختارون الذين يأتون من خارج المسرح فهم نماذج ويعطون معنى - وان لم يكن قويا - لقيم وتصرفات المجتمع الحر التقليدى ٠ ويصور ســـكان البلدة بعض

صفات فكرة رجل الفريق وذلك فى أعمال الخادم والوصيفة وربما فى التحام وأهداف المجتمع بعد الاعدام · ولكن الشخصيات مثل مستر أوردن ودكتور ونترز وكوريل المتناقض بعقليته التى تشبه آلة الحرب فانهم يحتفظون بشخصياتهم الفـــردية ·· وفى بعض الأحيان يمثل المجتمع الغازى النسخة العسكرية لكيان رجل الفريق · فكل رجل له واجبه ودوره العسكرى ويقوم به كما أن « لوفت » و «« براكل » يتحدثان ويتصرفان مثل العسكريين ·ويدرك كل من هانتر ولانزر الحاجة الى الانضباط والطاعة ، ويبدو الكولونيل لانزر بوجه خاص على معرفة بأعمال الكيان العسكرى · ومع ذلك فان الانطباع عن الجنود والضباط كرجل فريق لا يحدث الا فى بعض الأحيان فقط·

ان صور بعض الشخصيات العسكرية وسكان البلدة يعيـــد حيوية القصة أحيانا ·· وقد أحسن شتاينبك صنعا اذ لم يلجأ الى الشخصيات المألوفة للضباط والرجال غير العاديين أو شبه البشريين· فالماجور هنتر مثـــلاً شخصية مقنعة كمهندس يهتم بلوحة الرسم والخطط أكثر مما يهتم بالناس والقضايا ، أما النقيب تندر فهو ينفرد بمحاولاته المخلصة ولكن الساذجة فى اغراء موردن وتجنب الحرب· فى حين أن الكابتن لوفت لديه الصراحـــة الكافية ليعترف بأنه انتهازى · وسكان البلدة بوجه عام شخصيات واقعية يمكن تصديقها باستثناء آنى وجوزيف اللذين يمكن التكهن بسهولة جدا بأنهمـــا خادمان لطيفان محتالان · ومولى موردن لا تخلو من الاحساس وهى تخطط بهدوء للانتقام من قتل زوجها ، والدكتور ونتر المتحدث الفلسفى فى القصة يبدو متزنا وذكيا بطريقة معقولة ·

ويضيف العمدة « أوردن » والكولونيل « لانز » مادة ومغزى واقعيا الى The Moon is Down باعتبارهما بطلى حرب وشخصين يؤمنان بالفردية · ان أوردن البليد المتعجرف يؤمن بآراء من شب

فى مجتمع ديمقراطى ، وهو يدرك حدوده وتطلعات سكان البلدة ، وتنقصه المزاعم والغرور ، وهو رجل واقعى صلب يتمسك بالمثل العليا للمجتمع فى حين أن لانز الأكثر تعقيدا مفكر غير هـــادف يهتم بالعمليات ، وفى نفس الوقت مفكر هادف حساس للقيم الخلقيـــة والاجتماعية ٠ ورغم أنه لا يعبأ كثيرا بالسلطة أو الزعامة فانه ينفذ الأوامر لأنه يعرف أن البلدة سوف تتجاهلها وتستعيد حريتها فى آخر الأمر ٠ ويعتبر كل من أوردن ولانزر شخصيتين من ثلاثة أبعاد ٠

بعد العودة الى الولايات المتحدة عام ١٩٤٣ كتب شتاينبك كتابا آخر عن الحرب ولكنه كان قد تعب من حديث ونشاط الحرب فقرر عدم نشره ٠٠ وكان شتاينبك يعرف أن المدنيين بوجه عـــام والمجندين بوجه خاص يريدون أن يقرأوا شيئا سلميا ومضحكا فركز على التجارب السارة فى الثلاثينات ، وقرر كتابة رواية ثانية عن مونتيرى أو كاليفورنيا ، أو عن منطقة من تلك المدينة المشهورة ٠

وعكف على كتابة قصة Cannery Row (١٩٤٥) وفرغ منها فى ستة أسابيع فقط ، وأصبحت من أكثر كتب شتاينبك شعبية ٠ ومثل Sea of Cortez التى صدرت قبلها بعدة سنوات كانت الرواية متـــأثرة بعمق بتفكيـــر وشخصية وحياة أوريكيتس ، وتبـــدأ Cannery Row بهذه العبارة : « الى ان ريكيتس الذى يعرف السبب أو يجب أن يعرف » ٠ وفى القصة يصبح ريكيتس « دوك » عـــالم الأحياء وصاحب معمل الأحياء الغربى ويعيش فى الـــ Row وهو قطاع بوهيمى قريب من مصانع تعليب السمك فى مونتيرى ٠ ان دوك ومعمله وأسلوب حياته يكون نواة المجتمع الصغير ٠٠ وعبر الشارع أمام المعمل يوجد دكان بقالة لى شونج ، وفى قطعة الفضاء المجاورة لدكان البقالة يعيش ماك والأولاد ٠ ويشترك فى قطعة الفضاء أيضا

مطعم بير فلاج الذى تملكه دورا وهو بيت دعارة محترم ! كما يقيم فى الفضاء أيضا زوجان يسكنان فى خزان تعليب ضخم مهجور ٠٠ ان الـ Rowفى قصص شتاينبك لا تقل شهرة عن الـ Flat فى Tortilla Flat (١٩٣٥) وهى منطقة رخيصة الايجار لاتعانى من المظاهر أو التوتر ولكنها ليست خاملة٠٠فيحدث فيها شىء دائما ٠وتبدأ الأحداث بمشاهد للى شرنج ودكان بقالته،ثم تنتقل مسافة قصيرةالى مطعم بيرفلاج الذى تملكه دورا ثم الى معمل دوك ثم الى ماك والأولاد فى «بالاس فلوب هاوس» ٠ وفى بداية القصة يعلم القارىء عن انتحار هوراس أبيفيل والفتوة وليم وعن الصينى العجوز الغريب ، وعن دوك وجمعه العينات فى تايد بول ، وعن مستر ومسز مالورى ٠٠ وفى الفصول الوسطى غالبا ما يتحول التركيز الى خارج الـ Row بينما يقوم دوك بجمع الاخطبوط ، ويقوم الأولاد وماك بامساك مئات الضفادع ٠ وعند عودتهم يقيم ماك والأولاد حفلا كبيرا « لدوك » يفلت فيه الزمام ٠ وعندما يعود « دوك » يستاء جدا مما حدث وتتركز الجهود الأخيرة على محاولات المجتمع لتكريم دوك بحفل هادىء كبير يحقق نجاحا ضخما ٠٠ وبعد ذلك يشعر دوك بالراحة والتأمل ٠

من الواضح أن مثل هذه الشخصيات والأنشطة تربط Cannery Row و Tortilla Flat فكلا القصتين تتسمان بالخيال وتفكك الوحدة ، كما أنهما مكتوبتان بطريقة رائعة فى بعض أجزائهما ٠

ان أسلوب الحياة السهلة التى تبحث دائما عن المتعة يضع Connery Row أيضا فى التقليد العريض للقصص الغربية التى كتبها بريت هارث وجاك لندن اللذين كتبا أحيانا عن أساليب الحياة السهلة المنطلقة ٠ ورغم أن المقامرين وعمال المناجم والعاهرات فى قصص هارث كانت تلهو وتعمل تحت ضغوط لا تتعرض لها شخصيات رو ، الا أن تزامل الشخصيات واستقلالها وتسامحها تذكر بالحياة

المرسومة فى Cannery Row • كان جاك لندن يفضل نوع المغامرات الذى يندر وجوده فى Row •• ولكن المتشردين واللصوص نفس الشىء فى كل من وبعض قصص لندن •

وترتبط Cannery Row أيضـــا مثل Sea of Cortez بالأدب الأمريكى الرومانطيقى للقرن التـــاسع عشر • فنجد أن ســكان الــ Row رومانطيقيون فى تحديهم للمجتمع التقليدى• ويعيش ماك والأولاد وغيرهم فى مجتمع مستقل نسبيا ، ويمثلون تعاليم اميرسون التى تدعو الى أن تعيش حياتك كما تريد •• ويبدو البعض حالمين غامضين أكثر منهم متلهفين على اللذات ، وهكذا يساهمون فى الجو الرومانطيقى • أما دوك فقد يعتبر أولا شخصية ثورية (نسبة الى (Thoreau) ولكنه كعالم يجد فى البرك الجذرية أدلة على قوانين الطبيعة ، وعلى الاعتقاد الذى ورد فى Sea of Cortez وهو أن كل الكائنات الحية متصلة ببعضها•• ان صورة البركة الجذرية التى تعتبر مجازا جزءا من المجتمع تشبه بركة ثورو ويمكن أن تشبه أيضا محيط ملفيل •

وتميل هذه العناصر الرومانطيقية وغيرها الى السخرية لأن القصة لا تشمل كثيرا من الأشياء البطولية الحقيقية أو الخارقة •

ان وحدة القصة يمكن أن تثير الارتباك فعند قراءتها للمرة الأولى قد لا تبدو الفصول الـ ٣٢ والمقدمة أكثر من مجرد خيط أو سلسلة من الحلقات أو القصص التى لا ترتبط ببعضها ارتباطا قويا •

أما الفصول الاضافية الـ ١١ أو الـ ١٢ ومكانها فى تطور الأحداث فقد تثير الحيرة •• ان Connery Row تشـــــبه

The Pastures of Heaves و Tortilla Flat في طبيعتها المتعددة الأحداث · وتختلف عن القصة الأخيرة في أنها أقل اعتمادا على الأساطير وأكثر اعتمادا على المكان ، كما تختلف عن الأولى في أنها أكثر ارتباطا في أساسها ·

والواقع أن Cannerl Row تتسم ببناء قوى بفضل تناقض الموضوعات وتطور عضوى في بعض الأحيان · وتصور الفصول التمهيدية (من الفصل الأول حتى الفصل الثامن) كلا النقطتين · فالبداية الشاعرية تقدم تناقض الموضوعات « القصيدة والعفن وصوت التزييق وصفة حياة التجمع والتفرق والمعامل وفنادق المتشردين » · وبتعميق النظرة يمكن أن تعتبر سكان الـ

« عاهرات وقوادين ومغامرين وأولاد كلاب » · كما يمكن أيضا اعتبارهم « قديسين وملائكة وضحايا ورجالا مقدسين » · وفي سياق القصة نجد تناقضات بين الرتيب والمرموق ، بين القبيح والجميل ·· سواء كانت هذه التناقضات ساخرة أو صريحة ·· وفي الفصول الأولى في التقارير عن السكان اما أنهم يموتون بطريقة تثير الرثاء ، أو يعيشون على نحو يحرك الخيال ، كما أنهم راسخون في أوصاف المباني وارتباطاتهم بالسكان ·

وتبدو بقالة « لي شونج » عادية الا لمن يحتاجون الى الويسكي أو قطع الخنزير أو الخس أو الألعاب النارية أو البيرة أو أحذية التنس أو أى شيء آخر · ودكان البقالة الذى يوصف « بأنه معتبر جدا » مكدس حتى السقف بكل شيء موضوع في أى مكان كيفما اتفق · وشونج نفسه رجل متميز ·· أما مبنى أبيفيل المتداعي الذى كان حتى عهد قريب مخزنا قذرا للعلف فانه يتحول على يد ماك والأولاد الى فندق للمتشردين من الدرجة الأولى · وخليط من كل شيء لا يباع منه شيء :

« كانت هناك سجاجيد قديمة على الأرض وكراس بقـــاعدة وبدون قاعدة « وشيزلونج » من الخـــوص المطلى باللون الأحمر الفاقع ، وموائد وساعة من عهد الأجداد بدون أجزاء أو وجه ٠٠ كانت الجدران مطلية بلون أبيض فبدت بهجة مضيئة ٠٠ وبدأت الصور تظهر ومعظمها نتائج حائط عليها صور شقراوات فاتنات تحملن زجاجات الكوكاكولا ٠٠ وفى أحد الأركان وقفت حزمة من الأعشاب الطويلة ، وعلى الجدار ثبتت بالمســـامير باقة من ريش الطاووس بجانب ساعة الجد القديمة ٠

ويتركز الاهتمام على مطعم بير فلاج الذى تملكه دورا فيصور نوعيات مختلفة ترتاده ولكن معظمها المثير وطالب اللذة والمتزن والعفيف بقدر المستطاع ٠ ويضم معمل أحياء « دوك » المكونات الواقعية والخرافية تحت سقف واحد برفوف وموائد وضعت فوقها عينات بحرية وأجهزة علمية وأيضـــــا أسطوانات ولوحات وكتب كثيرة ٠ ان مبنى « دوك » الذى لا يقل تكدسا عن بقالة شـــونج مرصوف من الداخل والخارج ومن أعلى وأسفل كما يناسب مكانا تقع فيه أحداث كبيرة فردية أو جماعيـــــة ٠٠ ويتصل الفصلان الاضافيان الثانى والرابع من حيث الموضوع بأوصاف الـ Row والمبانى لأنهما يوضحان الواقع الحقيقى المعقد للمجتمع ويمسان موضوعات مثل الحياة والموت والحلم والخوف ٠

وتبدأ الفصول الوسطى بالاتفاق الذى وصل اليه دوك وماك فى الفصل التاسع وتنتهى بثورة دوك ــ وهو على حق فيها ــ ضد المذنب التائب فى الفصل الحادى والعشرين ٠ وفيما بين ذلك يمضى العالم الوحيد فى بحثه عن الأخطبوط ويتناول فى الطريق الهامبرجو ويشرب البيرة المخلوطة باللبن وذلك قبل أن يكتشف على الشاطىء ليس الأخطبوط فقط ، وانما امرأة ميتة جميلة ٠٠ أما ماك والأولاد

وهم أولاد كلاب وقديسون فى نفس الوقت فانهم يسرقون ويمضون فى طريقهم يمسكون الضفادع ويبذلون التضحيات وينغمسون فى شكل مضحك من التناقضات ٠

وتصور أيضا الفصول التى تتخلل الجزء الأوسط أشياء عادية وخارقة ، مضحكة وراقية ٠٠ ان فرانكى الذى يحب دوك أكثر من معظم الآخرين لا يستطيع أن يساعده كثيرا ، كما لا يمكن مساعدة فرانكى نفسه الذى يستحق المساعدة ٠٠ والحادث البشع الذى يمس بقايا « جوش بيللنج » يصور محاولات المحترمين للاحتفاظ بما هو محترم ٠٠ ان الجنود والفتيات السعداء فى الفصل الرابع عشر يغفلون مسألة الاحترام ولا يكترثون اطلاقا بالملكية أو الوضع ٠ على أن المنبوذين اجتماعيا فى الـ Row يستطيعون القيام بجهود جماعية حقيقية كما يبدو فى نضالهم ضد الانفلونزا ٠ وهذه الفصول التى تتخلل القصة وتبين قواعد القصة الموضوعية تساهم فى السياق الروائى الرئيسى الذى ينتهى بالحفل الصاخب وغضب دوك ٠

وتمهد الترتيبات لحفل دوك الثانى لصيغة الربط السائدة فى الفصول بين ٢٢ و٣٢ ٠ وتبدو الأمزجة فى Row كئيبة أو مرتبكة أحيانا ، كما أن بعض المساهمات فى الحفل لا تخلو من الأنانية ٠ على أن النبرة السائدة ايجابية ومتحمسة وتبدو بوضوح أثناء الحفل وخاصة أثناء الشجار الذى ينتهى به الحفل ٠٠ انه ليس شجارا عاديا ولكنه احتفال بهيج ـ تشترك فيه العصى واللكمات والزجاجات وكل ما تقع عليه الأيدى ـ من العراك الجسدى ومعركة بطولية ساخرة على Skid Row ٠٠ ويبلور الشجار المشاعر العميقة التى أدت الى الحفل ويبعد أى بقايا للوحدة والعزلة والأنانية ٠

وتصور الفصول ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣١ تناقضات مختلفة في الموضوع وأحداثا تبدو في فصول قليلة متصلة بالحفل مباشرة. وبينما نجد أن معظم أوصاف أنشطة Row متوازنة بين المرح والتهكم ، فان سلاسة الكاتب أو عاطفته تجعلها عاطفية في بعض الأحيان . فالتقرير في الفصل ٢٥ عن انتشار « نوع من السعادة » ليس فقط في أنحاء Row ولكن على طول الشاطىء وفي قلوب عجول البحر لا يلبث أن يصبح سخيفا . ومن حسن الحظ أن قليلا من مثل هذه المبـــالغات تظهر في Cannery Row ورغم أن الحياة في الـ Row لا تعتبر مثالية الا أنها خالية من التوتر والتصـــــدع الموجود في القصص الأولى . ففي قصـــة To a God Unknown تنفصل عائلات واين في النهاية كما يرحل كثيرون من مجتمع الوادي في The Pastures of Heaven كما أن داني وأولاده لا يبقون ســـويا وكذلك المجمـــوعات في In Dubious Battle وفي Of Mice and Men تتفتت بتأثير الظروف الاقتصادية والنقائص البشرية . وحتى عنـــدما تبدو المعسكرات الحكومية كافية في The Grapes of Wrath يرحل معظم المهاجرين بسبب ضغوط خارجية .

ان الحياة بالنسبة للكثيرين في الـ Row تبدو طيبة وستظل هكذا ، وهي تكفل لهم الحرية فيستطيع شخص النوم في خزان في قطعة الفضاء ، أو يشتري ما يريده من بقالة لي شونج ، أو يدفع دولارين في زيارة لمطعم دورا أو يعمل قليلا عند دوك أو في مصنع تعليب قريب ، ويستطيع الا يعمل أي شيء ! فنجد بعض النـــاس يعيشون على الهامش في الـ Row فالتسامح موجود أيضا .. فينسجم هنري الرسام الذي ليس رساما مع دوك الذي يظهر تسامحا نحو الجميع ، وينسجم أيضا مع البرت « الفتوة » الذي يبدو على علاقة طيبة مع ماك والأولاد على عكس سلفه . ويوجد شعور قوي

بالمجتمع لأن معظم سكان الـ Row يشتركون فى الفقر أو الحظ التعس أو الكسل · كما أن كلا منهم يساعد الآخر لأنه ليس هناك من يساعدهم من خارج المجتمع · ومن المؤكد أن الـ Row تحظى بأكثر من نصيبها من الحب ·

ان رد شتاينبك على مالكولم كولى بأن Cannery Row كانت فى الواقع « طبق قشدة مسموما » يشير الى الناحية الأخرى من العملة · وتلك الناحية الأخرى عبارة عن سخرية موجهة الى معظم نواحى الحياة فى **Cannery Row** ·· فهناك سخرية فى الاشارات الى رجال الطبقة التوسطة والطبقة العليا الذين يتسللون خلسة الى بيت دورا ، والى أصحاب ومديرى مصانع التعليب الذين يركبون آمنين سيارات فارهة من والى مكاتبهم ، والى المسئولين فى الشرطة والمدينة الذين يطلبون منحا كبيرة من دورا حتى تستمر فى عملها · أما القيم المحترمة للطبقة المتوسطة مثل الطموح والمثابرة والجد والثقة فانها تنال ما تستحق من انتقام لأن ماك وادى وألبرت وآل مالورى لا يثقون كثيرا فى مقاييس الذين وصلوا أو كادوا يصلون ·· ومع ذلك لا تفلت شخصيات الـRow من اللوم فهى لا تخلو من الأنانية والخيانة والطيش · ان رفض ماك لوليم الفتوة والقواد يؤدى الى انتحار الرجل · كما أن أفعاله فى الحفل الأول غبية وهدامة ·· ولكن ماك والآخرين يبدون عموما أكثر جاذبية من شخصيات كثيرة تنتمى الى الطبقة المتوسطة فى القصة ·

ويكمن جزء من السـخرية والتهـكم فى Cannery Row فى حقيقة أن الشخصيات الرئيسية تجمع بين الصفات البوهيمية وصفات الطبقة الوسطى ·· ويعتبر لى شونج ودورا فلود فريدين فى نوعيهما لأنهما يجمعان بين الرخاء المالى والرحمة · كما أن شونج ودورا على عكس نظرائهما فى أماكن أخرى فى مونتيرى

يضعان القيم الانسانية فوق القيم المالية • لقد فقد لى مبالغ كبيرة بسبب منح قروض طويلة المدى لمعظم الناس فى الـ Row كما كان رحيما أيضا فى نواح أخرى • فبعد انتحار هوراس أبيفيل الذى كان قد اعترف مازحا أنه لا يملك ثمن لفة لبان لأطفاله يحرص شونج على أن يكون مع كل طفل فى Row لفة لبان برائحة النعناع! ويعتبر شونج قدوة للآخرين فى المجتمع باعتباره رجلا يتسم بكرامة وحصافة طبيعية •

أما ما تبيعه دورا فلود فلا يمكن شراؤه على الحساب ! على أن سعرها لوسائل الترفيه معقول وموحد لكل شخص وهى تدير « منزل رياضة لطيفا نظيفا محتشما على الطراز القديم » ولا تسمح لأى أحد فى مؤسستها برفع الأسعار ! وتعتبر دورا ومؤسستها مقبولة لدى مجتمع الطبقة المتوسطة لأنها تساهم بخدمات قيمة وتدفع مستحقات كبيرة • على أن السيدة ذات الشعر البرتقالى تصبح أحيانا عاهرة عاطفية طيبة القلب مثل صاحبة Susy فى Of Mice and Men أوفاى وجينى العاهرتين السابقتين فى East of Eden ويعتبر دوك الشخصية المركزية فى Cannery Row وهو يحتل فى قصص شتاينبك نفس مكانة ماما وتوم جود وجيم كازى وجودى تفلن ، كما يتسم بصفات بارزة من صفات دوك بيرتون فى In Dubious Battle وجوان شيكوى فى The Wayward Bus ومن أبرز صفاته الانسانية والرحمة •• فنجده دائما مستعدا لمساعدة شخص محتاج سواء بقرض أو بطعام أو بنصيحة مفيدة •

انه يسدى النصيحة لفتيات دورا ، وبعد الحفل الأول المشئوم يظل يشيد بماك رغم كل شىء • واذا كان ينغمس فى علاقاته العاطفية وانتصاراته الجنسية فانها تبين أيضا اعتمادا طيبا على الآخرين •

وتكمن أعظم قوة دوك في القدرة على الجمع بين التناقضات وقبول سخريات الحياة وتناقضها · « لم يكن لذهنه أفق ولم يكن لعاطفة تحيز » · وهو على مستوى غالبية لمعظم المناسبات والطلبات وعندما يتردد أو يضطرب لا يشـــعر بمرارة ·· ان عزلته تعكس التزاماته بالمثل العليا وبحثه عن الحياة المتوازنة ·· كما أن اهتمامه الكبير بالعلم يضفى على الحياة معنى واتجاها ·· وهذا الاهتمام والتدريب يفسر الى حد ما رحابة صدره وقبوله للمنبوذين والفاشلين والشواذ فى المجتمع ·

ان دوك لا « يلوم » ماك ولا يبدى اهتماما « بأسباب » متاعب فرانكى ·· انه يريد أن يفهم ويقبل الاثنين كما همـــا فى مجرى الأمور،وهكذا يعكس الأفكار التى وردت قبل ذلك فى Sea of Cortez

ان اهتمـــــام دوك العلمى يوازنه حب وفهم عميق للرسم والموسيقى والشعر التىتثبت أنها فى نفس متعة العلم ·· وعلى جدران المكتبة فى مكان دوك يوجد :

« دواليب كتب تصل الى السقف ·· كتب من كل نوع ·· قواميس وموسوعات وشعر ومسرحيــــات وبجانب الحائط يوجد « فونوغراف » كبير ومئات من الاسطوانات مصطفة بجانبه ·· وعلى الجدران وعلى دواليب الكتب توجد نسخ من لوحات دومير وجراهام وتينيان وليناردو وبيكاسو ودالى وجورج جروز » ·

وفى بعض الأحيان يستمع الى موســـيقى كنائسية وتراتيل كاثوليكية واســـــطوانات لمونتى فيردى وبيتهوفن وباخ ليهرب من متطلبات العلم ومن خدمات Row المرهقة · وهذه تخلق احساسا بالهدوء والكمال · كما أن تراجم الشعر السنسكريتى والصينى تساهم أيضا فى هدوء عقل الرجل وفى احترامه للحياة والموت · وكل هذا ضرورى لأسلوب حياة دوك الانسانى الفريد من نوعه ·

القصة الرمزية والواقعية والرومانطيقية بعد الحرب

ان سنوات الحرب والمهام المتفرقة والتنقل من بيت الى آخر والزواج الجديد والاقامة الدائمة فى الشرق ٠٠ كل هذا لم يغير كثيرا من شكل وغرض قصص شتاينبك ٠٠ ان القصص الأربع التى ظهرت بين ١٩٤٧ : ١٩٥٢ تبين الأهمية الدائمة للموضوعات الغربية والاهتمام بخامتين مألوفتين لقصصه وهما الرمزية والواقعية ٠ كان اهتمام شتاينبك بالقصة الرمزية قد ظهر أولا فى حبه « لمورث وارتر » فى صباه ، وبعد قليل فى شخصيات وأحداث لقصة فى ستانفورد بعنوان The Gifts of Iban ، ثم فى Cup of Gold (١٩٢٩) وفى To a God Unknown (١٩٣٣) ، وقد ظهرت بوضوح اكثر فى Tortilla Flat (١٩٣٥) شخصيات وأحداث تمثل أفكارا أو مواقف ونماذج أشكال وتركيزا أخلاقيا قويا ، وكلها من صفات القصة الرمزية والخلقية بوجه خاص ٠

ورغم أن هذه الصفات أقل أهمية فى قصص الكساد الواقعية، فان صور جوى وجيم ومواجهات الاحزاب فى In Dubious Battle (١٩٣٦) تتضمن مستوى رمزيا يركز على أفكار أو صفات ٠ ويظهر هذا التركيز أيضا فى الشخصيات ذات البعدين والأوضاع والصيغ الخاصة لـ The Grapes of Wrath (١٩٣٩) ٠ ويمكن اعتبار Cannery Row (١٩٤٥) قصة خلقية أولا لأن القصة كما يقول لورنس ٠ و ٠ جونز تشمل الى جانب الملامح العادية « العالم المخطط البراق للاواقعية » واهتماما بالموضوعات الأخلاقية رغم أنه ينقصها الحوار العالى ونموذج الصيغة لقصة خلقية كاملة ٠

ورغم أهمية القصة الرمزية والخلقية فى قصص ما بعد الحرب فانها ليست أهم مما كان شتاينبك يفضله منذ فترة طويلة وهى

القصة الواقعية التى يرجع تاريخها الى اهتمامه بالقصة الرمزية
التى ظهرت مثـــلا فى The Chrysan themums
فى الثلاثينات وأيضا فى قصص الكساد ٠٠ والواقع أن قصص
أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات كما سنرى تكشف عن ضعف
فى التركيز الرمزى ، وقوة لموقف شتاينبك من الواقعية والرومانطيقية
ويتضح الجمع بينهما أيضـــا فى قصصــــه الأولى وبينها
The Grapes of Wrath

وفى بعض الأحيان يستطيع عمل غير ناجح أن يصور موقفا
كبيرا للكاتب وخاصة نقاط ضعفه بطريقة أفضل ما تصوره قصـــة
جيدة البناء سلسة الاسلوب ٠ وهذا يصدق على الأقل بالنســـبة
Burning Bright التى ستناقش هنا لأنها تبين فشل استخدام
الرمز ٠ ولعل أقل قصص شتاينبك اقناعا وهى Burning Flight
التى صدرت فى عام ١٩٥٠ فى صورة قصة ومسرحية فى برودواى
٠٠ لعلها فشلت فى المجالين لأن اهتمام شتاينبك الحقيقى لم يكن
بالامكانيات الخيالية للمواد ، ولكن بالأفكار ونماذج الشخصيات
المعاصرة ٠

ان ترتيبات السرك والمزرعة والقارب تبدو رائعة ولكنها لاتكشف
كثيرا عن موضوع العقم ، وعن الشخصيات المصابة بالاحباط سوى
أنها تشير الى عالميتها ٠ كما أن الأحداث التى تدور حول الزوج
جوساول والزوجة موردين وحملها من فكتور تبدو أحيانا هزيلة
وبديهية ٠ ويقوم جوساول وموردين بدور فى المشاهد الواقعية ولكن
الآخرين لا يشتركون ٠٠ ويقول الصديق اد الأشياء المناسبة فى
الأوقات المناسبة بطريقة تصبح غير معقولة ، فى حين أن تغيرات
فكتور من الثقة الجريئة الى النضج المضطرب ترقد على السطح ٠
وسرعان ما تصبح الملاحظات عن العقم والحب مبسطة ، ويظل الجمع

الذى يمكّن أن يكون شائقا بين الرمزية والواقعية بين النمـــــاذج والحقائق البشعة ٠٠ يظل بليدا وغير مقنع ٠

ان مثل نقاط الضعف هذه لا تظهر فى قصة رمزية سابقة أروع بكثير وهى The Pearl التى خطرت فكرتها لشتاينبك أثناء الرحلة البحرية على متن ســـــفينة وسترن فلاير عام ١٩٤٠ ٠ كانت Sea of Cortez (١٩٤١) قد أشارت بالفعل الى قصة المكسيكى الشاب واللؤلؤة الكبيرة التى ظهرت بعنوان The Pearl of the World فى مجلة Woman's Home Companion فى ديسمبر ١٩٤٥ كما ظهرت فى قالب رواية فى ١٩٤٧ ٠

ان The Pearl قصة أخلاقية حديثة تدور حول بحث رجل عن الأمن والثروة والحرية ، وتتركز الأحداث الموجودة فيها على صياد اسمه كينو وزوجته جوانا وطفله الرضيع كويوتينو الذين يعيشون فى قرية صغيرة على شاطىء فى المكسيك ٠٠ ففى صباح أحد الأيام يلدغ الابن بعقرب ، وفى محاولة للحصول على نقـــود للعلاج الطبى يعثر كينو على لؤلؤة كبيرة ٠ ويعالج طبيب البلدة الابن ولكنه هو وغيره يضمرون خططـــــا شريرة عن اللؤلؤة ٠٠ ويتعرض كينو للاعتداء أثناء محاولات لسرقتهـــا ويحذره أخوه وزوجته بالتخلص من اللؤلؤة ولكن كينو يحتفظ بها بسبب خططه للمستقبل ٠٠ وأثناء رحيل الأسرة من القرية تتعرض للهجوم من ثلاثة رجال ٠ وفى القتال يقتل الرجال الثلاث والابن الرضيع ، وبعد أن يعود الأبوان الحزينان الى القرية يلقى كينو باللؤلؤة الكبيرة فى البحر ٠

ان العناصر الرمزية الأساسية واضحة ٠ فمن الواضح أن كينو وجوانا وكويوتيتو طيبون وأبرياء وتظل الأم والابن هكذا ٠٠ ان

الطفل نفسه لؤلؤة رمزية · وتصور القرية الحياة البريئة بينما تمثل البلدة الأكبر مصدر شر للأسرة ··· أما الناس من البلدة الذين يزمعون شراء اللؤلؤة فانهم جشعون ، كما أن الطبيب متآمر وقاس· وتمثل رحلة الزوج من القرية مغامرة داخل المجهول والخطر والشر · والشخصيات والأوضـــــاع المختلفة الأخرى فى The Pearl تحمل أيضا معانى من الأرجح أن معظم القراء يتفقون عليها ·

ومع ذلك فان العبارة المقتبسة التى تسبق الفصل الأول وهى « اذا كانت هذه قصة خلقية فربما يأخذ كل واحد معناه الخاص منها ويقرأ حياته الخاصة فيها » ·· هذه العبارة توعز بأن الأحداث فى The Pearl فيهـــــا معــــان عميقة ثرية غير موجودة فى Burning Bright ·· ان علاج الطبيب القاسى قد يفيد الابن فعلا ، كما يستطيع كينو أن يكون حكيما ويستبدل اللؤلؤة بفوائد قليلة ، ولكنه فى محاولة لكسب المستقبل يتجاهل أخاه ويقتل أعداءه ويضرب زوجته ·· وهذا معناه أن الرجل الطيب يمكن أن يحيد عن الطريق عندما يسرف فى اهتمامه بأمور الحياة المادية · وتؤدى تصرفات كينو فى النهاية الى موت كويوتينو وهذه أكبر خســـارة يمنى بها ·

فى هذا العمل الرائع يحتفظ الكاتب بالجو غير الواقعى للقصة الأخلاقية بطريقة جميلة ·· فتبدأ The Pearl فى ساعة مبكرة من صباح هادىء عندما يستيقظ الأبوان ويبدآن اليوم بهدوء ·· كانت أسرة كينو تؤلف الأغانى فى وقت من الأوقات ، وفى الساعات الأولى قبل أن تنقض العقرب على الطفل يستمع كينو الى أغنيـــة يسميها « أغنية الأسرة » ·

« أمام الباب جلس القرفصاء وجمع أطراف البطـــانية حول

ركبتيه ٠٠ وخلفه تحولت نار جوانا الى لهب وألقت بجـــراب من الضوء من خلال شقوق المنزل المتداعى ، كما ألقت مربعا مهتزا من الضوء خارج الباب ٠٠ وفى تلك اللحظة تهادت اغنية الأسرة من خلف كينو ٠٠ وكان ايقاع أغنية الأسرة هو حجر الطاحونة حيث كانت جوانا تطحن الذرة لكعك الصباح » ٠

ان امتلاك لؤلؤة العـــالم The Pearl of the World يخلق موسيقى من نوع خاص فى ذهن كينو ٠ وبعد أن أعيدت اللؤلؤة الى البحر « تحولت موسيقى اللؤلؤة الى همسة واختفت » ٠٠ وتفيد صور البحر والحيوان أيضا فى ربط أنشطة الأسرة المختلفة ٠

وفى سياق القصة الأخلاقية نجد أن تناقض المكان والأفراد والمجتمعات وتكّرار الأحداث ــ مثل مغادرة القرية والعودة اليها ــ تصور موضوعات خلقية عبر الكاتب عنهـــا كلها بأسلوب نثرى حساس ٠

ان رحلة شتاينبك مع اد ريكيتس عام ١٩٤٠ لم تتمخض فقطعن The Pearl, Sea of Cortez ولكنهـــا أنتجت أيضـــا The Wayward Bus (١٩٤٧) التى أعدت أحداثها فى المكسيك أصلا ، وكان المفروض أن تكون «شيئا أشبه بدون كيشوت المكسيك» ٠ ان شتاينبك الذي استمتع بكتابة القصة شرح في خطاب الي ناشره وقال : « لقد تطورت من قصة صغيرة مضحكة الي أعظم شيء حاولت كتابته » ٠ وقد بيع منها قبل النشر حوالي مليون نسخة وهو ما يعبر عن الآمال الكبيرة التي عقدها الكاتب حول القصة ٠٠ واستمر التوزيع الواسع للقصة في أوائل الخمسينات عندما وجد القراء الشخصيات ومآسيهم مشوقة ٠ ومع ذلك فان كثيرا من القـــراء الذين يتسمون بقوة الادراك أعربوا عن ميل لنقد القصة فى ذلك

الوقت وفيما بعد ، وذكروا من بين نقاط ضعفها الشخصيات الجامدة والحركة البطيئة والرموز البليدة ٠٠ على أنه من المحتمل أن الاهتمام النقدى الذى وجه الى The Wayward Bus والى East of Eden كان يرجع الى ضعفها المزعوم أكثر مما يرجع الى قوتها الحقيقية ٠ فالمواد الرمزية فى الواقع محكمة الاعداد ، كما أن القصة الرمزية تقدمها فقرة مقتبسة من السطور الست الأولى لـ Everyman وهى مسرحية أخلاقية فى أواخر القرن التاسع عشر عن شخص يسافر الى الموت ، ولكنه لا يجد من يصحبه الا الأعمال الطيبة ٠

وتبدأ السطور المقتبسة هكذا : « أرجوكم جميعا أن تنتبهوا وأن تصغوا الى هذا الموضوع بكل تبجيل ٠٠ انها مسرحية أخلاقية واسمها Everyman ٠ وتعرض معظم الشخصيات فى The Wayward Bus صفات رمزية ويمكن أن تعتبر بعضها ممثلة لشخصيات Everyman الحديثة : كاميل أوكس هى بيوتى ٠٠ وبمبلز هو فايف ويتس وثان برانت هو ألوت ٠٠ وقد يكون جوان شيكوى هو المسيح ٠٠ وربما يكون ارنست هورتون الطيب فيلوشيب فى العصر الحديث ٠٠ ان رحلتهم رمزية الى حد ما فهى تشمل عدة عقبات تنقل احساسا بالعالمية وتنتهى ليلا بينما يتحرك الأوتوبيس وهو يرمز اما الى الجنس البشرى أو الى أمريكا نحو البلدة الصغيرة ، أو الوت ٠

وهناك نقاط صغرى مختلفة تستعمل لمعالجة القصة الخلقية ٠٠ مثل الحروف الأولى من Juan Chicoy ترمز الى المسيح Jesus Christ والكلمات الدينية (التى لا تكاد تقرأ) على صدام السيارة وهى قوة المسيح العظمى ٠ والعذراء المعدنية الصغيرة على تابلو السيارة ٠ والعلامات الدينية على طول الطريق « ٠٠ توبوا فان ملكوت السموات قريبة » ٠

على أن قوة القصة الأساسية لا تكمن فى الرموز ولكن فى الواقعية • فمن بين أعمـــال شتاينبك الطويلة لا توجد ســوى The Red Pony أكثر واقعية فى تصوير الأشياء حسب تأثيرها على الحواس •• ان متاعب ومآسى السفر بالأوتوبيس فى كاليفورنيا بعد الحرب تسجل بعناية ودقة •• والمواد الرمزية والعنـــاصر الساخرة تكمن فى الداخل وتأتى بعد الواقع والحقيقة ••• وادماج كل هذا يبدو مقنعا فى معظم الأجزاء •

والأوصاف الأولى فى The Wayward Bus تصور انشغال الكاتب بحقائق وأمور الحياة اليومية ففى الفصل الأول بعد أوصاف محطة الأوتوبيس فى Rebel Corners يقدم وصفا للمطعم الصغير هناك والموائد الثلاث ومنضـــدة الخزينة الطويلة وكنكة القهوة الفضية ومحتويات الرفوف :

« على الرف الأول خلف منضدة الخزينة كانت هناك شطائر حلوى وقواقع ، وعلى الرف الثانى معلبات حساء وبرتقال وموز ، وعلى الرف الثالث بعض علب الكورن فليكس والرايس فليكس وبعض الغلال الأخرى •• وكانت هناك شواية فى أحد الأطراف خلف منضدة الخزينة وبجانبها حوض ، وبجانب ذلك بيرة وصـــودا ، وبجانب هذه آلة لصنع الآيس كريم ، وفوق منضدة الخزينة نفسها بين علب مناديل الورق والملح والفلفل وصلصة الكتشاب عرضت الكعك تحت أغطية كبيرة من البلاستك » •

وكما هو متوقع توجد أيضـــا أوصاف للذباب الطنان حول منضدة الخزينة ، وللباب السلك الذى يدخل منه الذباب ، وللأسرة والأدراج فى أقسام المعيشة • وفى الخارج لشجر البلوط الأبيض الرشيق الطويل الذى يظلل كورنرز ، ولو كان الحداد الذى تحول

الى جاراج قريبا من المطعم • ومن داخل الجاراج تقف سـيارة الأوتوبيس الضالة لاصلاحها :

« كانت سيارة أوتوبيس قديمة بأربع سلندرات وآلة كبس بطيء وترس اضافى يعطيها خمس سرعات بدلا من ثلاث ونقلتين أقل من المعدل العادى وسرعتين الى الوراء •• وكانت الجوانب المنتفخة لسيارة الأوتوبيس تلمع بطلاء الألمنيوم ومع ذلك يبدو عليها آثار الصدمات والثنيات والخدوش علامة على حياة طويلة عنيفة » •

ويمضى شتاينبك فيصف بالتفصيل سمات كثيرة بسبب دقة معرفته بأجزاء محركات السيارات •• وبعد مغادرة ريبل كورنرز تقرر المجموعة عدم المرور على الكوبرى فى بريد ، ويقود جوان السيرة فى الطريق المتعرج الملىء بالحفر نحو سان ايزيدرو • وحينما يمضى الأوتوبيس فى طريقه يعرض وصف تفصيلى لتاريخ الطريق والحفر المليئة بالأعشاب والزهور البرية والأسوار المصنوعة من الخشب الأحمر والأسلاك الشائكة • ومضمون هذا أن كل شخص فى الأوتوبيس لا يتأثر فقط بالآخرين ، وانما بحـالة الأوتوبيس والطريق والمكان المحيط • أما مياه الفيضان التى تهدر فوق الكوبرى فى بريد فانها لا تشير الى الصفات الرمزية بقدر ما تمثل أخطارا حقيقية جدا وعقبات فى الطريق • والطريق القديم الذى يضل فيه الجميع بعد ذلك جزء من الحقيقة القائمة فى ذلك الزمان والمكان التى تهدد بوقف التقدم المضطرد للجنس البشرى أو لمجموعة صغيرة نحو الوت أو نحو بلدة صغيرة فى كاليفورنيا •

وتعرض ريبل كورنرز والمكان المجاور لها بدقة وعناية فهى لا تغطى الا قطاعا صغيرا من أرض كاليفورنيا الوسطى الموصوفة فى Grapes of Wrath ان ركاب الأوتوبيس وسكان ريبل كورنرز

على حد سواء ــ وهم يؤلفون عينة من الأمريكيين الذين ينتمون الى الطبقة المتوسطة فى منتصف القرن ـ يتسمون بصفات رمزية ولكن هذه الصفات مختلطة بمهارة مع المواد الواقعية الأكثر ثقلا ٠ فاذا كانت الحروف الأولى من جوان شـــــيكوى Juan Chicoy والاحترام للعذراء المعدنية توعز بأنه قد يستخدم موجها أخلاقيا فى القصة ، فان الأوصاف السائدة له ــ الوجه واليدان والمنظر العام ــ لا تنقل انطباعا بقوة وزعامة خارقة أو رمزية بل ان هذه الأوصاف توحى أكثر بأنه رجل مجرب وقادر ويمكن الاعتماد على حكمه ٠٠ وفى بعض النواحى يبدو أنه الرجل الذى كان يمكن أن يكونه توم جود لو أن الأمور سارت على نحو مختلف ٠ ان شجاعة وأمانة جوان تميزانه عن غيره كما أن رضاه عن نفسه وتسامحه مع الآخرين تعكس ثقة جوهرية ٠

وتشمل الصياغة الواقعية للشخصيات فى القصة عنـــاصر ساخرة كما تشمل عناصر رمزية ٠٠ فمعظم الشخصيات لديها حدود أو أفضليات تشير الى انتقادات شتاينبك لقيم ما بعد الحرب ٠٠ ان البائع ارنست هورتون الذى اكتسب صلابة من معارك المشاة شخص واقعى بوجه عام يتسامح مع الآخرين ولا يفتقر الى الشجاعة ٠٠ ومع ذلك يبدو واضحا أن هورتون يسعى الى الترقية ويتخلى عن مبادىء قليلة فى سبيل تحقيق هدفه ، كما أنه مبهور بوسائل الراحة والتمويه التى يبيعها لشركة ليتل وندرز ٠ ولكن السخرية خفيفة ٠ على أن الكاتب يتناول مستر بريتشارد المستنير نسبيا بطريقة عنيفة ٠٠ فيصف بريتشارد بأنه « رجل أعمال ورئيس مؤسسة متوسـطة الحجم » ويمثل نجاح الأعمال وقيمها كما يبدو متزنا آمرا قوى الشكيمة ٠٠ والواقع أنه ليس شيئا من هذا ٠٠ ان بريتشارد يعتمد على « المحاسبين » فى شركته وعلى زواج مصطنع فى بيته ليدعم مركزه ويضمن ثقته ونجاحه ٠ وعندما يحرم من هذه الدعائم ينهار

·· وفى خلال دقائق قليلة يبدو متآمرا مع كاميل وهورتون وشرسا مع زوجته ··

ان بريتشارد حسب تصنيف الناقد بيتر ليسكا واحد من « الملاعين » · أما بمبلز أو « كيت كارسون » فهو نموذج من الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة ويحقق نجاحا نسبيا فيعمل بجد ويساعد جوان بكفاءة ويجامل أليس التى لا تكف عن النقد ، ولكن فى خيالاته الجنسية وخططه لمستقبل فى مجال الالكترونيات يترنح أحيانا ويتأثر مثل نورما بالنزعات والوساوس السائدة فى ذلك العهد ·· وأبعد هذه الشخصيات عن نبض الواقعية هو فان برانت الكريه الذى يمثل الموت ··· ان ضرباته وثوراته وانذاراته تصوره أيضا نبيا للخراب فى العصر الحديث ومع ذلك يبدو مجرد رجل عجوز حقود متجهم فى أقواله وأفعاله ·

ورغم أن الشخصيات النسائية فى The Wayward Bus ليست أقل عددا وأهمية منها فى
The Grapes of Wrath, The Long Valley
فان الصور الواقعية هى الغالبة ·· ففى ريبل كورنرز لا تظهر العاهرات ذوات القلوب الطيبة ، ولا الشخصيات الموسوسة باستثناء واحدة فقط ، ولا الأمهات القويات ·· هناك نسوة وحيدات ولكن تظهرن فى العادة بدون النهاية المألوفة وهى الدعارة أو خيبة الأمل فنجد مثلا أن كلا من كاميل أوكس وملدريد بريتشارد سيدة متزنة تحترم نفسها ·· وتحاول كاميل أن تحافظ على معنى القيم فى مجتمع تسوده المنافسة ويرتكز على الجنس ·· ان كاميل أمينة على نفسها ومع الآخرين وهى تعتبر مهنتها كراقصة « ستريب تيز » مجرد ضرورة اقتصادية · وهى لا تزهو بمفاتنها الجسدية بل انها تضطرب بسببها ·· أما ملدريد بريتشارد التى ثارت على قيود الأسرة فقد

تصبح احدى النساء المتحررات بعد الحرب · انها تستمتع بالجنس ولا تشعر بالذنب من علاقاتها ، بل تعترف بواقعية أن علاقتها مع جوان قد انتهت ·· انها تدرك عيوبها ولا تستهين بعيوب أبويها ·

ونورا الجرسونة ذات الأحلام والمشاعر المرهفة تفتقر الى الحكمة · فهى تعبد كلارك جيبل وتساورها أحلام يقظة حادة عن حياة مستقلة مع كاميل أوكس ، ولا تستطيع أن تدرك على نحو كاف أن المتاعب فى انتظارها ·· أما مسز بريتشارد الرقيقة فهى ليست أما قوية · كما أنها ليست واقعية ولا صريحة ولا تفهم ابنتها فتحاول أن تخفى تحفظها وكراهيتها تحت العادات والتقاليد التى يقبلها المجتمع · ولا تقل أليس شيكوى وسوسة عن الشخصيات النسائية الدينية فى Grapes of Wrath وهى تحكم على كل شىء وكل شخص بطريقتها السطحية الخاصة ·

انها تخشى تقدم السن وتخاف من فكرة أن جوان قد يتركها فتسىء الحكم على نفسها وعلى الآخرين ، وتبدو أنها تهتم بالذباب أكثر مما تهتم بالناس وتعامل بميلز باحتقار ، ولا يعرف بوضوح السبب فى بقاء جوان معها طوال هذه المدة ·

وبينما تساعد الرموز فى صياغة أحداث وأفكار The Wayward Bus نجد أن عوامل البناء الغالبة هى المواد الواقعية نفسها وعناصر الموضوع بوجه خاص ·· ان الموضوع هنا لا يضاهى حجم وسرعة In Dubious Battle ولكنه قائم بصلابة أكثر من سيكلوجية الشخصيات بحيث توجد عادة روابط ممكنة وضرورية بين المشاعر والأسباب من ناحية ، وبين أعمال احدى الشخصيات من ناحية أخرى · كما توجد مثل هذه الروابط بين التصرفات المختلفة · ان الاحباطات أو الانهيارات المادية والجنسية

هى التى تؤثر أساسا على المشاعر والأسباب والأفعال ·

ويمكن ذكر العناصر الضرورية للموضوع فى ثلاثة تسلسلات للقصة · ان الفصول بين الأول والسادس تقدم تاريخ خلفية ريبل كورنرز ، وتقارير عن أنشطة الصباح ، بينما تستأنف بعض الشخصيات أدوارا مألوفة ويحاول الركاب التكيف بأدوار مختلفة·

ونلاحظ أن المتاعب والمضايقات التى تجمت عن عطل الأوتوبيس تقلق بعض المسافرين وليس كلهم · فبعد ليلة لم تذق أليس فيها النوم تبدو أكثر تبرما من المعتاد ، وتؤدى احباطاتها الجنسية خاصة الى مشاهد متوترة مع نورما · ويبدو هورتون مليئا بالحيوية كما هو دائما ، أما جوان وهو صاحب وسائق الأوتوبيس أيضا فانه مقدر وهادىء فيصلح الأوتوبيس ويطمئن كيت ويهدىء أليس ويسيطر على الشخصيات الآخرى بمهارة وذكاء · ان المضايقات المادية تختبرهم وخاصة آل بريتشارد وفان برانت الذين يفتقرون الى الشعور الداخلى بالأمن فيواجهون التوترات والتعقيدات بمشاعر عنيفة ·

وينقطع مؤقتا مشهد المضايقات والتوتر والاحباط في ريبل كورترز فى الفصل السابع ، بينما تتحول الأحداث الى محطة أوتوبيس جراى هاوند فى سان ايزيدرو ، وتظهر الشقراء الفاتنة التى تسمى نفسها كاميل أوكسي · ان كاميل لا تنسى متاعب رحلة الأوتوبيس ، ولكنها لا تدع هذه المضايقات تقلقها ،كما أنها لا تتضايق من المشاعر الشهوانية التي تبدو من سائق الأوتوبيس « لوى » أو في ريبل كورنرز من عينى ملدريد النفاذتين ·· على أن اهتمام بريتشارد وهورتون يثير قلقها ويؤدى الي نتائج تمس الرجلين ··

فيثبت بريتشارد أنه يحب متاع الدنيا ويحاول اغواء كاميل وتعتبر ابنته هذا السلوك عقززا فاضحا ·· وتطمئن نورما بحضور كاميل

وتتضايق من ذهول أليس فتتشاجر مع أليس وتترك العمل ‥ ويكون رد أليس كما هو متوقع ، وتبدأ برحلة ادمان الخمر بمجرد أن يبدأ الأوتوبيس رحلته · ويظل جوان رابط الجأش فى هذه الأثناء ولكن شكاوى وجدال فان برانت على الطريق تزعجه وتساهم فى قرار جوان الذى يتخذه فيما بعد للترحيل ·

وفى التسلسل الأخير من الفصل الرابع عشر الى الفصل الثانى والعشرين تقبل قلة من الشخصيات أعباء واحباطات الحياة ، بينما يظهر الآخرون قيما وأسبابا مختلة ‥ ان جوان شيكوى الممزق بين واجباته نحو المنزل ونحو المستقبل يبدو حكيما عندما يفضل حقائق الحاضر على غموض المستقبل ‥ وتبدى ميلدريد استعدادا للمضى قدما بعد أن خاضت تجربتها وعرفت أشياء أكثر عن نفسها وعن أبويها فهى أيضا شخصية واقعية · ورغم أن كاميل لا تريد أن تجازف بشىء مع بريتشارد الا أنها قد تقرر المجازفة فيما بعد مع ارنست ونورما · فهى مرهفة ولا تستطيع أن تتخذ قرارا فتنتظر وترى كيف ستمضى الأمور » · وهو نفس موقف ارنست والواقعيين الآخرين أيضا · وتقاوم نورما محاولات كيت الجنسية ولكنها تظل معرضة لتهديدات واحباطات فى المستقبل‥أما كيت الذى يمكن الاعتماد عليه كمساعد فيتعين عليه أن يعرف الكثير عن نفسه وعن النساء · ولكنه سيظل على قيد الحياة ‥ فىحين أن فان برانت لن يعيش‥ ويواجه آل بريتشارد رحلة مريبة جدا · أما أليس فسوف تعود الى الحياة عندما يعود جوان الى ريبل كورترز ‥ ان مجتمع ما بعد الحرب عموما خليط من المتشردين والطيبين واللامبالين ·

خلال سنوات الحرب المنتجة أبدى شتاينبك حماسا لعمل اعتقد أنه سيكون أفضل مؤلفاته · وكان هذا العمل أصلا قصة عن أهل أمه وهم آل هاملتون الذين كانوا قد غادروا ايرلندا فى فى الستينات

من القرن التاسع عشر (١٨٦٠) وأقاموا فترة قصيرة فى كونيتيكت ثم استقروا فى كاليفورنيا ٠٠ وكانت الحكاية ستغطى الفترة بين ١٨٦٠ حتى أوائل ١٩٠٠ ٠٠ وكان العنوان الأول لقصـــة East of Eden هـــو Salinas Valley ومكتوبة بضمير المتكلم وبدأت هكذا : « عزيزى توم وجون ٠٠ أنتما صبيان صغيران الآن وأنا أكتب هذا » ٠ وفى بداية كتابة القصة ظهرت أسرة أخرى وهى أسرة تراسك فى كونيتيكت التى لمع اسمها كثيرا لدرجة أنه فى النسخة النهائية عام ١٩٥١ اختصرت قصة آل هاملتون وحذفت معظم الفقرات المكتوبة بضمير المتكلم والتى تخاطب الابنين ٠

ورغم هذه التعقيدات احتفظ شتاينبك بالثقـــة والعزم طوال كتابة القصة ٠٠ وقال « اعتقد أن كل ما كتبته كان الى حد ما تدريبا من أجل هذا ٠٠ **اذا لم تكن** East of Eden جيدة أكون قد ضيعت وقتى هباء » ٠ وقد استغرق العمل فيها خمس سنوات من البحث والكتابة والمراجعة ، وقد قرأ شتاينبك بتوسع فى صحف المنطقة ، وخاصة فى صحيفة ساليناس كاليفورنيان وهى الصحيفة المحلية فى المدينة كى يملأ الثغرات فى حكايات أسرة شتاينبك عن الحياة فى الوادى ٠ كما حصل على كتب ومقالات مناسبة من ناشره لمواد عن الانجيل وقد حرص شتاينبك على أن يتأمل بعمق عددا من النقاط لأن العمل كان يعتبر أروع مؤلفاته الأدبية ٠

ان أهم نقطة اعتقد بعض النقاد أن الكاتب قد تجنبها فى القصص الأولى كانت مشكلة الشر وخاصة علاقة الخير والشر ٠

ان هـــذه العـــلاقة التى توصـــف بأنها « القصـــة الرئيســـة فى العالم » **تعرض من خلال قصـــة هابيل وقابيل** فى سفر التكوين التى تعرض بدورها فى الرواية من خلال شخصيات

وأقدار الأسرتين ·· ففى الفصول الأولى يظهر ادم تراسك فى صورة هابيل عصرى كما يظهر أخوه غير الشقيق تشارلز فى صورة قابيل·· ويشعر تشارلز بالغيرة العميقة من حب أبيه لآدم ويكاد يقتل ادم فى وقت من الأوقات كما جاء فى الانجيل · وبعد الحرب الأهليـــــة يتزوج آدم من كاتى وهى شخصية شريرة وبعد أن ينتقلا الى وادى ساليناس تنجب ابنين أحدهما من تشارلز على ما يبدو · وبعد أن تهجر الأسرة تصبح صاحبة منزل دعارة فى ساليناس ويكمل الابنان كليب وآرون فكرة هابيل وقابيل مع تعديلات مختلفة من بينها موت آرون وهو شخصية هابيل ·

كان شتاينبك يأمل أن تقابل East of Eden بترحيب مرضى وتحظى بثناء النقاد ولكن هذا لم يتحقق ، وقد حـــــدث نفس الشىء بالنسبة لـ The Wayward Bus · ورغم أن نسخا كثيرة بيعت من القصة الا أن النقاد وجدوا عيوبا خطيرة فى رسم الشخصيات وتطور الموضوع وربط الأسرتين · ورغم أنه لم يحدث تغيير كبير فى آراء النقاد فى السبعينات الا أن تأييدا قويا ظهر للقصة ··

ويعتقد لستر ماركس أحد النقاد أن القصـــــة أروع ما كتب ستاينبك كما أن لورانس · و · جونز فى دراسته لشتاينبك ككاتب قصة يعتبر East of Eden « قصة خلقية هائلة » ورواية رومانطيقية فى نواح كثيرة ·

ان اعتبـــــار The Wayward Bus رواية رومانطيقية أو رواية رومانطيقية أساسا معناه اعادة التنسيق النقدى الذى يبدو ضروريا لاعادة تقييم The Wayward Bus فكلا القصتين تعتمدان على مواد رمزية مع الفارق العام الهام وهو أن الواقعية هى الأســــــلوب وعـــــامل الصـــــياغة الرئيسى فى The Wayward Bus فى حيـــن

الرومانطيقية هى التى تقـــدم الأســـلوب وعـــامل الصياغة فى
East of Eden

وتختلف رومانطيقية East of Eden عن رومانطيقية
Cannery Row, فى أنهـــا أكثر تعقيـــدا وشمولا وايجابية ٠

ان East of Eden تشبه « موبى ديك » رواية القرن التاسع عشر الرومانطيقية فى معالجتها الواثقة لموضوعات كثيرة ونواح مختلفة للشخصية القومية وفى اتساع وتنوع الشخصيات والأعمـال الرائعة ٠

ان East of Eden لا تنحصر فى مدينة مثـــل Tortilla Flat و Cannery Row أو حتى فى المجـــال الجغـــرافى العـريض Grapes of Wrath كما أنها لا تغطى فقط منطقة وادى ساليناس ، ولكنها تغطى أيضا واشنطون ومناطق فى الجنوب والغرب والشمال٠ وتصور الشخصيات أيضا اتساعا وتنوعا مماثلا عندما نقرأ حكايات وتقارير عن أسر مختلفة وعدد من الشخصيات بعضها يثير الاهتمام لأنها تعكس أفكارا أخلاقية متعارضة ٠ ان كتب تراسك أو كاثى ايمز أصلا التى توصف بأنها « وحش » من الشر لا تأتى من مجتمع قصصى ولكن من فكرة شخصية بحتة تعكس « اقتراح القصة الرمزية » الذى يرى نورثروب فراى أنه يميز القصة الرومانطيقية ٠ ورغم أن تشارلز تراسك شخصية أكثر واقعية بعض الشىء الا أنه يتسم بنوع من ضيق الأفق الذى يوحى بالتبسيط الرمزى ٠ فى حين أن ســام هاملتون رومانطيقى عصرى وتصور أحلامه وانجـــازاته التالية التلقائية والاسراف الــــذى تتميز به الرواية الرومانطيقية ٠ وتظهـــر الشخصيات والأفعال على حد سواء فى القصة أكبر حجما وأكثر كثافة من الشخصيات فى The Wayward Bus

ويمكن الاحساس بشيء من الرومانطيقية أيضا فى الصيغ العامة فى East of Eden ٠٠ وموضوع القصة لا يتسم بالحركة البطيئة كما يحدث The Wayward Bus ولكن الصيغ تظهر بدلا من ذلك نقلة أكيدة شاملة من منطقة أو موضوع أو أسرة الى أخرى مع تركيز على النقاط الهامة ٠ وغالبا ما يكون الشرح والرواية أهم من العرض كما هو الحال فى « موبى ديك » ليلفيل ـ وتقدم مواد تفسيرية وروائية مسهبة بطريقة القرن التاسع عشر ٠ وفى بعض الأحيان تكون فى صورة مقالات عن الآخرة تراسك مثلا أو أنشطة سام هاملتون أو نضج كاتى ايمز ٠٠ والتفصيلات المكثفة فى مثل هذه الفقرات تؤكد الطبيعة غير العادية لهذه الشخصيات ٠

أما الموضوعات فمجالها واسع وتتناول نواحى من الحياة القرن التاسع عشر ، ومعارك الحرب الأهلية والحروب الهندية واستيطان الغرب وسياسات القوة فى واشنطون وحياة الريف والمدينة فى كونتينيكيت ٠٠ وفى تناول البحث العريض تصبح منطقة سالينياس منطقة تاريخية ، ومكانا رمزيا أو جنة أمريكية ممكنة يسافر اليها الناس مسافات طويلة ، فيأتى آل هاملتون من ايرلندا ، ويفد آل تراسك من كونيتيكت ٠ وفى هذه البلاد تصبح الرحلة مطلبا فى بعض الأحيان مثل رحيل آدم الى الغرب الكبير وبحث سام عن المثل العليا ٠

ويشهد تقسيم East of Eden الى أربعة أجزاء على حجم القصة ومدى اشتراك المؤلف الشخصى فهو يبدأ ثلاثة أجزاء بضمير المتكلم ، وهذه الفقرات الافتتاحية ليست دخيلة كما يزعم البعض ولكنها خيالية ٠٠ والمقالات المكتوبة بضمير المتكلم تشبه بعض الفصول الاضافية التى تتخلل The Grapes of Wrath كما تشبه أيضا مواقف المتكلم الموجود غالبا فى القصص الرومانطيقية٠ ففى الفصل

الأول مثلا يقدم شتاينبك باعتباره المؤلف والراوى مقالا شخصيا من جزئين عن الوادى ويبدأ الفصل هكذا :

« ان وادى سالنياس منخفض ضيق طويل بين سلسلتين من الجبال وينحنى ويلتوى نهر ساليناس الى أعلى فى وسطه حتى يصب أخيرا فى وادى مونتيرى ٠٠ أذكر أن جبال جابيلان شرق الوادى كانت جبالا لطيفة بهيجة مليئة بالشمس والجمـــــال وفيها نوع من الاغراء » ٠

ويتحدث الجزء الثانى من المقال عن المستوطنات فى الوادى التى بدأت بالهنود ، واستمرت بالأســـبان الجشـــعين ، وانتهت بالأمريكيين الأكثر عداء وابتكارا :

« ثم جاء الأمريكيون وكانوا أكثر جشعا ٠٠ كانوا كثيرين ٠٠ أخذوا الأراضى وسنوا القوانين من جديد حتى يحصلوا على حصص طيبة وانتشرت ملكية المزارع فوق الأرض ٠٠ بدأت فى الوديان أولا ثم صعدت الى أعلى على منحدرات سفح التل ٠٠ وأينما خرجت قطـرة ماء من الأرض ظهر منزل وبدأت أسرة تزرع وتتكاثر ٠٠ كان هذا هو حال وادى ساليناس عندما أحضر جدى زوجته واستقر على ســـفح التلال شرق كنج سيتى » ٠

ويسود الفقرة احساس بأن راوى القصة مؤرخ وورومانطيقى أيضا ٠

ويبدأ الجزء الثانى بمقال شخصى أقصر وهو مسح للقـــرن التاسع عشر ليعد خلفية لعام ١٩٠٠ وهو الوقت الحاضر فى الفصل الثالث عشر ٠٠ انه مقـــــال يتسم بالنحيب والولاء والأسف « لأن الفراولة لن تكون طيبة المذاق مرة أخرى » ٠٠٠ ولا يبدأ الفصل

الثالث بمقالة من هذا النوع أو بمقدمة ٠ والسبب فى ذلك غير واضح ... والمقال للجزء الرابع يناقش ردود الفعل ازاء الموت وخاصة موت ثلاثة رجال مرموقين فى القرن العشرين ، كما يوضح أيضا النقطة التى ورد ذكرها وهى أن القصة الأساسية فى العالم هى علاقة الخير والشر :

« لدينا قصة واحدة ٠٠ فكل القصص وكل الشعر يقوم على النزاع الذى لا ينتهى أبدا فى أنفسنا بين الخير والشر » ٠ ومواد الموضوعات لهذا المقال توازن الذكريات والمواد التاريخية الافتتاحية فى القصة ٠٠ ان هذه المقالات وحقائق الربط والموضاعات والرموز تقوى من وحدة القصة الشاملة ، ومن وحدة كل جزء على حدة من الأجزاء الأربعة ٠

على أن اعتبار East of Eden قصة رومانطيقية الى حد كبير ليس معناه الاستهانة بمشكلة شتاينبك فى ربط أسرتى هاملتون وتراسك ، فالمشكلة لا تزال باقية ، الاأن هذه الصلة تقوى وتتضح فى بعض الأوجه بالعناصر الرومانطيقية ٠

وترتبط الأسرتان فى الجزء الأول من خلال تقارب وتناقض الموضوعات ٠ ففى كاليفورنيا آل هاملتو المثاليون الممتلئون حيوية ، وفى الشرق يوجد آل تراسك المتجهمون المغلوبون على أمرهم ٠٠ وهناك سام هاملتون الذى يجرى وراء الأحلام ، وهناك سايروس السياسى الانتهازى ٠٠ ان مثل هذه التناقضات والروابط توضح الموضوعات الأوسع مثل الأبوة وكراهية ورفض الأبناء ومثل الخير والشر ٠

ويبدو ترابط الأسرتين أكثر تداخلا فى الجزء الثانى حيث تتمخض لقاءاتهما عن نتائج ٠٠ ويظهر سام هاملتون وهو الشخصية

الرومانطيقية الرئيسية فى East of Eden فى فصول كثيرة ويتعرف على آل تراسك الذين يثيرون حيرته ·· فى بداية الأمر تذهله كاثى بشرورها ثم يغضبه آدم بانهزاميته ، ويقهر سام الرجــل الأصغر ويرغمه على تسمية أبنائه وقبول مسئولياته نحوهم ·· ويقبل آدم · وفى أهم وأقوى مشهد فى القصة يلتقى سام هاملتون وآدم تراسك ولى فى غرفة معيشة آدم لاختيار الأسماء للاولاد ·· وبعد أن يقرأ سام من « العهد القديم » يبدون آراءهم فى الخطيئة الأولى وفى قابيل وهابيل وفى الجرم البشرى وفى رفض الناس بعضهم بعضا · ويظهر هذا المشهد فى منتصف Sea of Cortez تقريبا فيصور بطريقةمؤثرة مثالية ، رومانطيقية أساسية فى كل من المؤلف والشخصيات وهى الأيمان بقدرة الانسان على أن يعرف وفى مقدرته على أن يختار ·

على أن معالجة شتاينبك الملحمية العريضة لا تسيطر على مواد الأسرة أو تربطها على نحو كاف فى الجزء الثالث ، فيلعب آل هاملتون حاملو العقيدة الرومانطيقية دورا صغيرا اذ يموت سام وليزا وأونا فى الفصول الأولى ·· ويحتل آدم تراسك وابناه مركزا أكبر ، على أن نفوذ سام يظهر بوضوح فى مشهد قبل موته · وهذا المشهد فى الفصل الرابع والعشرين مثل مشهد اختيار الأسماء فى الجــزء الثانى يقع فى منتصف القصة تقريبا ويطور أفكارا نوقشت فى المشهد السابق ، ويؤثر على اتجاه الأحداث بعد ذلك · ويشرح لى لسام اكتشافات العلماء الصينيين الذين كانوا قد درسوا العبرية فى محاولة لفك طلاسم قصة هابيل وقابيل فى سفر التكوين · وقد اكتشف العلماء اختلافا كبيرا بين الترجمات الحديثة للقصة ، وبين النص العبرى الأصلى : « صاح : ألا ترى ·· ان الترجمــة الأمريكية النمطية « تأمر » الرجال بالانتصار على الخطيئة ويمكنك أن تسمى الخطيئة جهلا ·· فى حين أن ترجمة الملك جيمس تقدم وعدا فى « أنت سوف ··· » بمعنى أن الرجال سوف ينتصرون بالتأكيد على الخطيئة ··

ولكن الكلمة العبرية timshel التى تعنى « أنت ربما تستطيع » تعطى اختيارا ٠٠ قد تكون هذه الكلمة أهم كلمة فى العالم ٠٠ فهى تلقى بالمسئولية رأسا على الانسان ٠٠ فاذا صح القول «أنت ربما تستطيع» يصح القول أيضا « أنت ربما لا تستطيع » ألا ترى ؟ » ٠

فى هذا المشهد يتخطى لى سام ليصبح البرجماتى المثالى الذى يقبل نتائج البحث وسوف يلقنها لآدم ويفسرها لكالب ٠٠والمناقشات فى المشهد توسع من قاعدة موضوع القصة ٠٠

ان الامتداد الرومانطيقى فى الأجزاء الأولى يبدو خاضعا الى حد ما لمعالجةِ واقعية للموضوع والشخصية فى الجزء الرابع عندما يترك آل تراسك المزرعة وينتقلون داخل الحدود المحصورة لمجتمع المدينة ٠

وتبعا لهـذا تصبح التركيزات قصصية أكثر ٠ ان « لى » الذى يحسن صنعا ويعود الى الأسرة لا يقدم فقط توجيها خلقيا قائما الى حد ما على فراسته الجديدة ، ولكنه يقدم أيضا نصيحة واقعية سليمة بالنسبة لتربية الأولاد واستثمار المال ٠ أما آدم الذى يفقد جزءا كبيرا من ثروته فى تجربة عمل فانه يرفض كال ومنحة النقود التى يقدمها له فيما بعد ، ويرفض كال المعقد بدوره أخاه آرون وهو شخصية رمزية للخير ، وهو يذهب الى حتفه لأنه لا يستطيع مواجهة الحقائق القاسية ٠٠ وبعد خبطة آدم يدرس لى تركيب المخ حتى يفهم ويساعد آدم الذى يقرر فى النهاية الصفح عن كال ٠

ان معالجة شتاينبك للفكرة الانجيلية وفكرة الشر تبدو غير متناسقة أحيانا كما ذكر النقاد ٠٠ وتصبح كيت معقولة أكثر فى الجزء الرابع ٠٠ فتتحول من كونها رمزا للشر وذلك بالانضمام الى كنيسة وتربية ضميرها والمرور بتجارب ردود فعل عاطفية

قصيرة نحو كالب وآرون ، وأخيرا بقرارها الانتحار ، ومن ناحية أخرى نجد أن آدم المعروض بواقعية أكثر والذى يزعم لى أنه لم يكن يستطيع الا أن يرفض طالب يكتسب قوة وادراكا ليصفح دون أن يفسر سبب هذا ٠

ورغم أن هذه التناقضات والعيوب الأخرى تقدم دليلا كافيا على أن آمال شتاينبك فى كتابة قصة كبرى أخرى لم تكن لتتحقق ٠٠ رغم هذا تظل East of Eden ـــلا رائعا ٠ انها تبين سعة فى الرؤيا ومعالجة لم تظهر من قبل الا فى The Grapes of Wrath اذا كانت القراسات داخل الخير والشر لا تكشف عن عمق أى مرونة غير عادية فانها تظهر تعقيدا يندر وجوده فى قصص شتاينبك الأولى ٠ ان مشكلة الشر ـ التى بالغ فى تبسيطها فى الأعمال الأولى وتجنبها أحيانا وعبر عنها غالبا بلغة سياسية الى حد كبير ، تطرح للنقاش بين سام ولى وآدم ، كدا تناقش فى دوافع وأقدار عدة شخصيات وخاصة كاتى ركيت وتشارلم وكالب تراسك ٠ وتظهر التأكيدات على الخير بوضوح من خلال سام ولى ٠ والأول حالم مبتكر والثانى شخص انسانى لا يفقد الايمان اطلاقا فى الكرامة الانسانية والتعقل الانسانى ، ومن خلال اصرار آدم وكال اللذين يستطيعان تصوير ذلك الايمان رغم الخلافات ٠

ان القصة تفتقر الى حيوية وثراء النثر الموجود فى Grapes of Wrath غم ذلك فانها تستحق الآمال التى يعقدها عليها المؤلف ٠

ان East of Eden رغم عيوبها لا تتناول ثروة من المواد والموضوعات المتنوعة فقط ، ولكنها تفعل هذا أولا من خلال صيغة جريئة متحدية يصعب استيعابها ٠

دراسات فى السـنوات الأخيرة

بعد نشر East of Eden فى ١٩٥٢ استمر شتاينك يكتب فى أوائل الستينات ولكن النتائج كانت متباينة ٠٠ ان Sweet Thursday (١٩٥٤) وهو ملحق لـ Cannery Row قصة أخرى عن دوك وماك والأولاد مع أخت دورا فلود فونا فى شخصية صاحبة مطعم بير فلاج، وجوزيف ومارى فى شخصية المالكين الجديدين لدكان بقالة شونج ٠ وتتركز الأحداث على جهود ماك والآخرين لايجاد زوجة مناسـبة لدوك الذى عاد من الجيش ويبدو وحيدا ومكتئبا ٠ ويجـدون سوزى وهى احرى فتيات فونا ويتورطونفى مشاهد مضحكة مختلفة تنتهى بزواج دوك وسوزى ، وبدوك أستاذا قانعا راضيا فى معهـد التكنولوجيا فى كاليفورنيا ٠٠ وتظهر الكوميديا والضحك ثانيا فى مسرحية Pipe Dream (١٩٥٥) التى طورها رودجرز وهامرشتين ٠٠ ولا تحظى القصة ولا المسرحية بتقديركبير ٠

وفى عام ١٩٥٧ ظهرت The Short Reign of Pippin IV وهى قصة كوميدية موسيقية تقوم على تجارب شتاينبك فى فرنسا فى منتصف الخمسينات ، وموضوعة فى المستقبل القريب وتتحدث عن Pippin وهو عالم فلك فى منتصف العمر يتحول الى ملك ، ويحاول تنفيـذ برنامج اصلاح وطنى وتفشل اجراءات الاصلاح ٠٠

ويبدو عرض الفساد العصرى صارخا لأن صور الجماعات السياسية والقادة السياسيين فى سياق القصة تعتمد على التهريج أكثر مما تعتمد على السخرية البارعة والنكتة الحاذقة ٠٠ وفى هذه السنوات كان هناك عمل أهم بكثير يشغل وقت شتاينبك ٠٠ ذلك أن اهتمامه طول حياته بحكايات الملك آرثر بلغ ذروته فى أواخـر الخمسينات عنـدما بدأ بنفسـه ترجمة كتـاب مالورى الرائع

Morte d'Arthur وقد قضى شتاينبك فترة طويلة فى انجلترا منها سنة ونصف يقرأ ويأخذ مذكرات عن مئات الكتب التى تتناول القـــرن الخامس عشر ومالورى حتى يستعد استعدادا تاما للمشروع الطموح الذى يبدأ فى ١٩٥٦ ٠٠ كان على مر السنين قد قرأ مرة واخرى حكايات آرثر فى طبعة كالستون أولا ومنها نسخة كان قد تسلمها وهو فى التاسعة من عمره ، ثم فى طبعة ونشستر فى١٩٤٧ التى تقدم معالجة أكمل بكثير ٠

لقد جاب شتاينبك فى أنحار ريف انجلترا وويلز بصحبة زوجته اللين يحاول أن يكتسب شعورا حقيقيا بالأرض وماضيها البعيد ، وأيضا بالشخصيات والمغامرات فى الحكايات ٠

وقد استفاد أيضا من الأحاديث مع يوجين فينافر أول وأهـــم مرجع فى العالم من مالورى ومكتشف مجلد ونشستر فى ١٩٣٦ ٠ كان فينافر قد أبدى أعجابه بترجمة أعدها شتاينبك قبلذلكفعرض مساعدة الكاتب بأية وسيلة ممكنة ٠ لقد تنبأ شتاينبك فى ١٩٥٩ أن الترجمة العقلية للكتاب كله سوف تستغرق عشر سنوات ، وخلال هذه الفترة اعتبر شتاينبك الشروع « أكبر وأتمنى أن يكون أهم عمل أنجزته » ٠ وبعد الفترة الطويلة المفيدة من الاعداد والدراسة بدأ شتاينبك الكتابة فى يولية ١٩٥٨ واستمر حتى شهر أكتوبر من العام التالى ٠

وفى تلك المدة وربما خلال فترة قصيرة فى ١٩٦٥ ترجـــم شتاينبك جزءا فقط من المجلد الأول من العمل المكون من مجلدين ٠ وتقع الترجمة فى جزئين ٠ أولا خمسة أجزاء من الأجزاء الســـتة كحكاية الملك آرثر ثم جزء « جاوين وأوين ومارهولت » من الرواية الأولى ، وقصة The Noble Tale of Sir Launcelot of the Lake

كلها وقد صدرت هذه بعد موته فى The Acts of king Arthur and His Noble Nights (١٩٧٦) ٠

ان شتاينبك يخطط أصلا ليظل قريبا من « ايقاعات ونبرات » مالورى • ولذلك يقدم فى الأقسام الخمسة الأولى ترجمة مقروءة واضحة تجمع بين العبارات واللغة العصرية وشىء من حياكة لغة مالورى • وفى حكايات تالية يأخذ حرية أكثر مع نص ونشستر الذى راجعه فيناقر فيقوم بالحذف والاضافة بغرض ابراز الصـــفات الدرامية للمواد وزيادة ربطها •• وحسب أفضليات الكاتب القصصى العصرى يعمق شتاينبك رسم الشخصيات من خلال تحديد الصفات السيكلوجية ، كما يوسع أيضا قسما من ثلاث صفحات لمغامرات سير أوين حتى يصبح ثلاثين صفحة روائية تشمل نقاشا حـــول القوس الطويل وآثاره على الفروسية والحكومة ، وعرضا لقوانين الفروسية والنزال • على أن الروح السائدة فى الترجمة تظل قريبة جدا من مالورى • كما أن الأوصاف المزخرفة الجميلة للمنطقـــة القريبة تقدم جوا طبيعيا للمغامرات •

ولا يوجد سبب واضح لعدم اكمال شتاينبك الترجمة فقد فقد حماسه للمشروع كما يتضح من خطاباته ، ولعل هذا يرجع الى الفقرات المعقدة والغامضة فى نص مالورى ، أو الى الصـــعوبة الضخمة فى ربط الحكايات والحلقات الكثيرة • ولو أن شتاينبك عاش وعاد الى المشروع لاحتاج بلا شك الى وقت أطول وجهد أكبر مما كان قد تنبأ به أصلا • أما ما أنجزه فعلا فقد لقى قبولا حسنا ، وقد قال أحد الأدباء أنه لو أكمل الترجمة « لأصبحت احدى روائع الأعمال الأدبية فى عصرنا هذا » • ويعتبر المجلد الحالى قيما ليس فقط من أجل الترجمة التى تستحق القراءة والدراسة ، ولكن أيضا من أجل المقدمة القصيرة التى كتبها الكاتب والحاشية التى تضم ٧٦ خطـــابا مكتوبا عن الشروع من ١٩٥٦ : ١٩٦٥ ومعظمها لم تنشر من قبل •

ان خيبة أمل شتاينبك بالنسبة لترجمة مالورى ، وحاجته الى

التحول الى شيء آخر وانطباعاته عن أمريكا بعد عودته من انجلترا عام ١٩٥٩ ٠٠قد يكون كل هذا هو الذى أدى الى كتابة The Winter of Our Discontent التى ظهرت فى ١٩٦١ وهى تصوير ساخر للأمريكيين وقيمهم فى ١٩٦٠ ٠ ذلك أن المقالات الصحفية فى أواخر ١٩٥٩ وملاحظاته هو نفسه عن الأحوال على الشاطيء الشرقى أقنعته بأن أخطاء كثيرة حدثت فى البلاد ٠ وقد أعرب عن قلقه العميق فى خطاباته الى أصدقائه المقربين ازاء العنف والقسوة والنفاق الذى انتشر فى البلاد « وهو نزعة لا أخلاقية عامة سادت جميع مستويات حياتنا القومية » ٠ (وذكر فضائح التلفزيون فى ذلك الحين) وازاء صعوبة تربية الأطفال بطريقة سليمة فى مثل هذه البيئة ٠ وقد عبر عن هذه المخاوف باسهاب فى روايته الأخيرة ٠

وتختلف قصة The Winter of Our Discontent عن The Wayward Bus ـوهو بحث آخر كتبه من قبل عن نقاط ضعف الأمريكيين ـ من حيث أن المكان ليس غريبا ، وأن الزمان بعد ذلك بـ ١٢ سنة ، وأن الوضع القومى قد تغير ، وأن القصة مكتوبة بضمير المتكلم ـ وهذا تجديد حقيقى لقصة من تأليف شتاينبك ـ ويدعى الراوى اللين هولى وينحدر من الـ Puritans وهو كابتن سابق فى احدى فرق المشاة فى الحرب العالمية الثانية ، وخريج هارفارد ومتزوج وأب لولد وبنت لم يبلغا العشرين ، كما أنه يعمل أيضا كاتبا فى متجر كان يملكه فى أحد الأوقات ولكنه فقده بالافلاس ٠

وتبدأ الرواية فى يوم الجمعة الحزينة ٠٠ وأثناء النهار يتحدث ايثمان بالتتابع مع صراف فى بنك ومع صاحب بنك المدينة ومع سيدة جذابة مطلقة اسمها مارجى يونج هانت ثم مع ماروللو صاحب المتجر ٠٠ ويرفض أيضا رشوة من بائع ٠٠ وعندما يأوى

ايثمان الى فراشه فى تلك الليلة يفكر فى أسلافه وفى دانى تايلور سكير البلدة وصديق عمره ٠٠ وفى يوم السبت يقول له صراف البنك جو مورفى أنه كان يجب عليه أن يقبل الرشوة كما تتنبأ مارجى بتغير فى حظه ٠ وفى يوم الأحد وهو عيد الفصح بعد أن يتحدث هولى مع مستر بيكر وصاحب البنك ومع مارلو يقرر تدبير الأمور لنفسه وينجح فى استرداد المتجر من مارلو وأراض قيمة من تايلور بالتفاهم ٠٠ وتبدو احتمالات بأن يصبح هولى رجلا كبيرا فى المجتمع ولكنه يكتشف بعد فوات الأوان أن ابنه قد غش فى مسابقة انشاء قرية ٠٠ ويضيق هولى بمثل هذه التطورات ويحـــاول الانتحار ، ولكنه يعدل عندما يتذكر ابنته المثالية الأمينة ٠

وفى رواية مجرى الأحداث المعقد الذى يؤدى الى محاولة الانتحار يركز هولى بالضرورة على نيو بايتاون فى لونج ايلاند « احدى المدن الواضحة المحددة الأولى فى امريكا » وهى أيضا من أكثر المدن التى استكشفت تماما فى قصص شتانيبك ٠٠ لقد أقام آل هولى فى نيوبايتاون أجيالا طويلة ولذلك يعرف الراوى المدينة حق المعرفة ٠٠ ان ايثان الفقير الذى لا يملك سيارة يذهب الى عمله كل يوم سيرا على الأقدام ، وفى الليالى التى لا ينام فيها يجوب أحيانا فى انحاء المدينة ، ويستوعب وهو يسير خريطة شفوية للشوارع والمبانى والميناء القديم حيث كان الرجال وصيادو الحيتان يضفون حيوية على مشهد شاطىء البحر ٠٠ ويقدم هولى أيضا تاريخـــا فيقول شارحا ان المستوطنين الأوائل « نجحوا فى الجمع بين القرصنة والعفة Puritanism وهما لا يختلفان كثيرا عندما تدقق النظر فيهما ٠ فكلا الفريقين كانا يكرهان المعارضة وكلا الفريقين كانت عيونه زائغة على ممتلكات الغير ! ٠ وأينما اندمجوا أنتجوا مجموعة من القرود الصلفة الصامدة ٠٠ أننى أعرف الكثير عنهم لأن أبى جعلنى أعرف ٠ كان من نوع هواة الأسلاف وقد لاحظت دائما أن

الأسلاف يفتقرون عادة الى صفات الأشخاص التى يشيدون بها » ٠

وأثناء فترة صيد الحيتان ازدهرت نيو بايتاون ، وعندما تدهورت هذه المهنة فى أواخر القرن التاسع عشر تخلفت البلدة وراء المستوطنات المجاورة التى استمرت تنمو وتزدهر فى القرن العشرين ٠

ويبدو سكان بايتاون فى ١٩٦٠ أنهم لا يزالون يفضلون الطرق القديمة ويكرهون فكرة الضجة والصخب فى ميناء سياحى كبير ٠ على أن آخرين مثل مستر بيكر يريدون أن تلحق المدينة بركب العصر الحديث فتتوسع وتبنى مطارا ، وتستفيد من فرص السياحة وأعمال أخرى ٠٠ ان انقسام الآراء فى المجتمع يعتبر من بين أسباب الاستياء فى المدينة ، وأيضا فى نفس مؤرخها الرئيس والمتحدث باسمها ٠

ان أفراد أسر المدينة الذين يعكسون الآمال المتباينة والنزاعات الخلفية يعتبرون بالنسبة للقصة فى أهمية أفراد أسرة جود وأسرة ولسون وغيرهم بالنسبة لقصة The Grapes of Wrath . وتعود أسر هولى وفيليبس وايجار وبيكر فى The Winter of Our Discontent الى أجيال كثيرة ٠٠ ولا تبدو أسرة هولى بارزة كما أن أسرة تايلور التى يمثلها دانى الذى فصل من الاكاديمية البحرية فى الحرب العالمية الثانية كادت تندثر ٠ على أن أسرة بيكر برئاسة صاحب البنك لا تزال تتمتع بسلطة فى المجتمع ٠ ورغم أن أسرة الفير ماروللو تعتبر حديثة نسبيا على نيو بايتاون الا أن اسم الأسرة كما يقول ماروللو لهولى وهو يشير بزهو الى تاريخ أسرته ربما يرجع الى « ألفين أو ثلاثة آلاف سنة » ٠ ان أسرة ماروللو تأتى من روما ويتحدث عنها فاليريوس ماكسيموس ٠ « وما أهمية مائتى سنة » ٠ ويبدو واضحا أن عمر الأسرة الطويل عامل حيوى فى تشكيل شخصية ماروللو النزيهة ٠

ويعيش أفراد آل هولى كأسرة فى الماضى كما يعيشون فى الحاضر أو هذا هو رأى الراوى على الأقل • ويحب هولى زوجته ويعجب بمهارتها والتزامها بالقيام بأعمال البيت ولكنه يعتبرها عملية أكثر من اللازم ولا تهتم بالحياة الذهنية •• ورغم أن الابن الصغير ألن لا يتميز الا بصفات طيبة قليلة ، الا أنه قوى الاحتمال عنيد يتفهم بسرعة أى شكل من الاهمال أو الخيانة • ويعتقد هولى ان ايللين فقط هى التى تمثل أخلاقيات الماضى القوية ، وأنها ليست فقط ناضجة نسبيا ومتزنة ، ولكنها أمينة أيضا •• كما أن حبها لتميمة الأسرة وهى عبارة عن حجر براق ربما جاء به أحد الأسلاف من الصين يدل على ادراكها الحساس لماضى الأسرة •

وغالبا ما يبدو هولى مشغولا بذلك الماضى ، وأحيانا يفكر فى أبيه وهو عطوف لطيف أحبه ، ولكنه لا يستطيع أن يعجب به لأن نقاط ضعفه واستثماراته الحمقاء كلفت الأسرة ثروتهـــا ، وأدت بطريقة غير مباشرة الى افلاس ايثان بعد الحرب العالمية الثانية •• ان ايثان هولى الذى لا يشعر هو نفسه بالأمان يفكر باعتزاز فى عمته الكبرى ديبورا وجده اللذين يمثلان قوة الأسرة وتراثهـــا الأخلاقى • لقد علم الجد ايثان الصغير أشياء عن السفن وروى له أسرار احتراق بيل أدير •

وأهم من ذلك أن قوة شخصية الرجل العجوز واحساسه بواجبه الأخلاقى يظل يضىء الطريق لايثان فى الأوقات العصيبة • أما عمته الكبيرة التى كانت أكثر خيالا واحساسا بالشر فانها تعتبر أيضا موجهة أخلاقية لهولى •• وعندما تتحدث من واقع الماضى وتقدم عظات عن الواجب والشر فانها تمثل الضرورة لاجراء حسابات عمليـــة صارمة •• على أن الأسلاف وعظاتهم تصبح غامضة للراوى عندما يفكر أو يعمل بطريقة لا يوافقون عليها •

وهناك مجالات أخرى من حياة المجتمع وخاصة الحـــكومة المحلية وقطاع العمل تعتبر هدفا لسخرية شتاينبك فالخفير الليلى ـ الذى يطلق اشاعات ضارة كثيرة ـ والقضاة ومحافظ المدينة وأعضاء المجلس ٠٠ كلهم مذنبون أخلاقيا ٠ على أن ستونول جاكسون سميث رئيس الشرطة رجل مستقيم جامد كالصلب ٠ ومثل هذا التقسيم بين الأخلاقى واللا أخلاقى ٠٠ بين من يخدم مصلحته الذاتية ومن يراعى واجبه يظهر أيضا فى الشخصيات الكبرى التى تبرز الانهيار الذى حدث منذ أيام الماضى البطولى ٠ ان جو مورفى الماهر أمين فى أعمال البنك ، ولكنه مستعد دائما للقفز الى الفراش مع مارجى يونج هانت ، كما أنه لا يرى عيبا فى قبول رشوة بيجرز ٠٠ أما بيجرز العامل الحاذق الذى يعترف بمكر وذكاء هولى غير المتوقع فانه دليل آخر على الدهاء الذى يفسد به المال والجشع الأخلاقيات ٠٠ ويجمع مستر بيكر المواطن الأول فى المدينة بكل براعة بين صــفات القرصنة وصفات العفة التى يتسم بها أسلافه فهو « جنتلمان » دمث الخلق يراعى الضمير فى ادارة شئون البنك ولكنه أول من يؤيد العمليات السرية فى المجتمع !

ان استمرار بيكر فى المرتبة الأولى حتى يتغلب عليه مؤرخ المدينة بمناوراته يؤكد مدى ضعف كل من المجتمع والفرد ، وتبدو خطة شتاينبك العامة للكشف عن هذا الضعف سليمة ، على أن تكتيكاته مثار تساؤل ٠ ان أسباب هولى للرغبة فى التغييرات واضحة على نحو كاف ٠ فالزوجة وأفراد الأسرة يستحقون ســـيارة وجهاز تليفزيون وتحسينات مادية أخرى ٠ كما أن خريج هارفارد وأحــد أبطال الحرب يستحق وصفا أفضل ٠٠ وتطلع أسلاف هولى باستثناء البعض الى رقم واحد ويتطلع كثيرون فى المدينة أيضا ٠

ويتقدم هولى ليفعل نفس الشىء ٠٠ وهذا أمر مقنع لأن سنوات

الاستبعاد والخنوع جعلت من هولى رجلا يميل الى السرية انه رجل يتقن الكوميديا اللفظية والعبر اللبقة عن أرفف مخـــــازن البقالة والأسماء السخيفة التى لا نهاية لها عن زوجته ، ويعتبر تخطيط وظيفة البنــك أشبه بلعبة ، وخيانة ماروللو أو تايلور أقرب الى عمليات ذهنية يمكن السيطرة عليها ·· وعندما يكتشف أنه لا يستطيع أن يفعل هذا يفاجأ بأنه تورط فى المسألة بحيث لا يمكنه أن يقف ·

ان وصف العملية شائق لأن ذهن هولى متشابك معقــد ، ورحلته الى داخل هذا الذهن مكشوفة · كما أن تقارير شتاينبك عن الرحلة تلقى الضوء بمهارة وأحيانا بعمق على الاعتقادات والقرارات والشكوك · على أن هذه التقارير لا تبين بطريقة متناسقة وقوية أنه حتى الشخصية اليائسة المشوشة عقليا الضعيفة مثل ايثان اللن هولى يمكن أن تتخلى فى شهور قليلة عن المسئولية الخلقية التى حملتها طوال حياتها وتخذل الأسرة والأصدقاء كى تظهر فى النهاية صفات القرصنة وليس العفة التى ورثتها عن أسلافها ·

ويستعمل شتاينبك مواد أسطورية تكون مقلوبة عادة ربمــا ليغطى نقاط الضعف هذه ويعمم الموضوع · فيبدو هولى فى البداية باحساساته الدينية فى صورة تشبه المسيح فيرفض فى يوم الجمعة الحزينة رشوة المال واغراء الجسد · أما فى يوم الأحد عيد الفصح فانه يقرر أن يخذل ماروللو وتايلور ويسرق البنك وبذلك يتصف بصفات Judas ·· ان هذه التلميحات المعكوســة توضح وتثرى القصة ولكنها لا تقوى أسباب الراوى · كما أن الأساطير السياسية التى تدور حول مسابقة موضوع الانشاء « أحب أمريكا » واحتفالات الرابع من يولية تعكسها الى حد ما فضائح المدينة وغش اللن ومستقبل هولى السياسى · كذلك تبدو الاشارات والمقارنات بريتشارد الثالث ساخرة ، اذ أن الملك الذى تقدم خططه وخياناته خلفية لأعمال هولى

جرىء وشجاع وذكى ويقوم بأعمال عظيمة بعيدة الأثر ٠٠ صحيح أن هولى يقوم بخطوات جريئة وأحيانا ذكية ، ولكن خياناته لماروللو ودانى تتسم بالجبن ، كما أنه لا يقوم بأعمال بطولية أو مفجعة ٠

بعد أن عاش شتاينبك سنوات كثيرة فى مدينة نيويورك وميناء ساج وعدة سنوات فى الخارج يعمل فى مشروع مالورى ، أدرك أنه قد فقد الصلة بالبلاد ولذلك قرر أن يستعيد هذه الصلة من خلال رحلة فى انحاء البلاد ، وذلك بعد أن فرغ من The Winter of Our Discontent ٠٠ فأرسل فى طلب سيارة بيك أب كبيرة حمولة ثلاثة أرباع طن بمقطورة متصلة بها وسماها Rocinante وزود المركبة بمعدات وفيرة وأخذ معه كلبه البودل الفرنسى وبدأ الرحلة بعد يوم العمال ١٩٦٠ عكس عقارب الساعة من الشرق ٠٠ ويشبه تقريره عن تجاربه الذى نشره بعنوان Travels with Charley in Search of America (١٩٦٢) كتابه Sea of Cortez (١٩٤٠) من حيث أن كليهما يقومان على رحلة طويلة وبحث عن الحقائق والأفكار ، كما أن كليهما عملان غير قصصيين ومكتوبان بضمير المتكلم ٠ الا أن Travels with Charley يختلف فى أنه لا يقصد منه أن يكون علميا أو شاعريا أو فكريا ، ومن الواضح أن أحدا لم يشترك معه فى اعداده ٠٠ والكتاب ببساطة عبارة عن تقرير عن حلقات حول أسفار رجل فى وطنه ٠ وتغطى الأسفار كثيرا من الولايات الخمسين وتذهب بشتاينبك وكلبه عبر مدن وقرى لا تحصى ، وأحيانا الى مدينة كبيرة ٠ ولا يحاول الكاتب تغطية كل جزء من البلاد ويعترف بأنه « فى فيرجينيا أخذتنى الرحلة بعيدا وتركتنى ضالا بعيدا عن موطنى » ولكن أوصاف البلاد عموما بتنوعها وحجمها وتعقيدها مكتوبة باتقان واستيعاب ٠

ويربط التقارير وجود ضمنى لمعلق يتسم بالانسانية وأحيانا

بالغضب وهو أيضا راوى قصة له روح سهلة · ان خلق المشاهد مثل مشهد المقهى على جانب الطريق أو محطة البنزين أو مقر المخيمات يبدو واقعيا وحقيقيا · أما الناس ـ ويقول شتاينبك للقارىء أنه لم يقابل اطلاقا شخصا غريبا ـ فانهم معروضون بيد خبيرة : هناك مثلا صبى خجول يريد أن يعرف اذا كان يستطيع أن ينضم للرحلة · ويوجد مشرف على مزرعة يوافق على أن يؤجر لشتاينبك خمية ليوم وليلة ·· وهناك شرطى نيويوركى يصحح طريقه ويرشده ·· وهناك أحداث كثيرة أشبه بمقتطفات من قصة واقعية ·· ويعرض الكلام والمحادثات بأمانة رغم أن شتاينبك يقول انه لم يجد لهجة « محلية حقيقية » حتى وصل الى مونتانا ·

ورغبة فى التغيير توجه أحاديث مرحة من طرف واحـد مـع الكلب شارلى وهو مخلوق غريب جرىء ، وعندما يشبك مع كلاب أخرى أو مع أصحابها يتيح لشتاينبك الفرصة للتعليق كما يشاء · والكتابة نفسها وافية بوجه عام · توجد لمسات عاطفية أحيانا ولكن سنوات الخبرة والتجربة والشعور المحنك يساعد على أن تظل صورة الأمريكيين وأنشطتهم واضحة تحت مستوى النظر ·

ان كتاب Travels with Charley ليس دراسة غير هادفة ، ولذلك لا يتردد الكاتب فى تقديم الآراء · فيوجه انتقاد كثير للتركيز القومى على الكبير والبارع و « العصرى » · وقد تجنب شتاينبك طرق السفر الكبرى والمنتزهات العامة والموتيلات الفاخرة ، كما أبدى سروره من وتشككه فى المطاعم والطعام التى تقدم خدمة سريعة ممتازة · وفى أماكن كثيرة استنكر أدلة أخرى على التقدم والحكومة الكبيرة « وصخب أمريكا الجنونى » ·

وفى رحلته قابل أناسا كثيرين لا يبالون بأعمالهم ولا بأساليب

حياتهم ولا بالبلاد عموما · وكانت الوحدة والجشع واللا مبالاة تميز الناجحين كما تميز الفاشلين ·· ويستنتج شـــتاينبك فى بعض المناسبات أن السخط ربما يكمن وراء حب أبناء وطنه للسفر وهذه صفة قد تكون أمريكية بحته مثل الرغبة فى البقاء حيث هم بلا تغيير ·

على أن كتاب Travels with Charley لا يقدم منظر ارض بور أو دليلا يثبت هذا كما زعم البعض · فحتى بصرف النظر عن مشاعر شتاينبك وحبه الكبير لبلاده الذى قد يخفف من حـــدة انتقاداته ، فان الانطباع الموضوعى السائد هو أن الحياة الأمريكية سوف تبقى وتصمد رغم نقاط ضعفها وتجاوزاتها · ان البلاد سليمة لأن أهلها متحدون أساسا ، فالأمريكيون يشبهون بعضهم بعضا رغم الاختلافات فى الوضع الاقتصادى والدين والعنصر والخلفيـــة القوميـــــة :

« ان هذه ليست ضجة وطنية ·· انها حقيقة ملاحظة بعناية ·· انها حقيقة واقعة أن الأمريكيين من كل القطاعات والفئات العنصرية يشبهون بعضهم بعضا أكثر مما يشبه أهالى ويلز سكان انجلترا ، والرجل الذى يسكن لانكشاير الرجل الذى يقيم فى الحى الشرقى من لندن ، أو ساكن مرتفعات سكوتلاندة ساكن منخفضـــــات سكوتلاندة · ومن الغريب أن هذا حدث فى أقل من ٢٠٠ سنة بل ان معظمه حدث فى الخمسين سنة الأخيرة · ان الشخصية الأمريكية شىء حقيقى يمكن اثباته » ·

وأثناء المحطات الكثيرة فى انحاء البلاد يتأثر شتاينبك أيضا بالأهالى الذين يظهرون حكمة وقدرة على الاحتمال وشـــجاعة واستعدادا للتكيف · ويوصف عدد من هؤلاء وصفا مطولا · ان الأوصاف وهى قطع تقدم صيغة بناء مفككة فى Travels with

Charley تعرض لنا قسا من نيو انجلاند فى كنيسة جون نوكس « تحدث عن الجحيم حديث الخبير ‥ انها ليست جهنم هذه الأيام الهشة الناعمة ولكنها النار الموقدة ‥ الجحيم الملتهب يشعلها فنيون مهرة من الدرجة الأولى » ٠ وتعرض ممثلا من داكوتا يسافر أيضا مع كلب فقط ويكسب قوته من ظهوره أمام المدارس أو الكنائس أو المنظمات الاجتماعية، أو حيثما وجد أكثر من ثلاثة أشخاص مجتمعين وتعرض عملاقا فى محطة بنزين فى أوريجون استغرق وقتا طويلا حتى عرف العطل فى سيارة الكاتب وكان العطل فى الاطارات ، فأخذ يتصل تليفونيا بأماكن فى المدينة وخارج المدينة ويشرك زوج أخته فى البحث !

٠ وتعرض طبيبا شابا فى أماريللو كان على عكس زميله البليد فى سبوكين ـ ماهرا ولطيفا وقد أعاد لشارلى صحته الكاملة فى أيام قليلة ‥ ولعل أبرز شخص أشاد به شتاينبك فى أسفاره هو رجل متقدم فى السن اسمه مسيوس جيت وهو من سان لويس أصلا وقد لفت نظره برقته وذكائه واهتمامه بالآخرين مما كان له أجمل الأثر فى بث الطمأنينة بعد الاضطرابات العنصرية التى قام بها فريق فى نيو أورليانز قبل عدة ساعات ٠

ويقدم آخر تقييم لشتاينبك عن البلاد فى America and Americans (١٩٦٦) ‥ لقد اعتقد أن الأجانب فقط هم الذين كتبوا مثل هذه الدراسات من قبل فقرر أن يكتب بحثا باعتبـــاره امريكيا محتا ٠ والنتيجة هى مجموعة مليئة بالمعلومات ومكونة من تسع مقالات تبدأ بـ « "E Pluribus Unum" » التى تصف الجنسيات المختلفة التى ساعدت على صنع البلاد وتنتهى بـ « "Americans and the Future" » التى تقيم قصورنا وأخلاقنا وآمالنا للمستقبل ٠

والمقالات الأخرى تشمل Paradox and Dream وهو استكشاف للاختلافات الوطنية والأحلام الأمريكية الصغيرة والكبيرة . كما تشـــمل Government of the People وهو نقاش لمؤتمرات الترشيح والرئاسة والكونجرس .. وتشـــمل ايضا Genus Americanus وهو أطول مقال ويبحث الطبقات فى مجتمع غير طبقى . ويتضمن المجلد الذى فى حجم الصحيفة صورا كثيرة تحتل صفحات كاملة بعدسة مصورين معروفين فى البلاد وهى تصـــور بطريقة عامة موضوعات المقالات ، وتساهم بتقديم انطباع عن البلاد بتنوعها وتعقيدها وعظمتها . ولا يزعم شتاينبك الموضوعية أو يدعى موقف الدارس ، وهو يذكر فى البداية أن « هذا الكتاب يضم آراء فردية لا تخجل ... وهل يمكن أن يكون شيئا آخر ؟ » . ويجب الأخذ بتصريح شتاينبك حرفيا . فالمقالات تقدم تعليقا صريحا جادا وغالبا ما يكون عنيفا عن متاعب الأقليات ، وعن الرؤساء الفاشلين، والسياسات القذرة ، وعن سوء معاملة الأرض والنساء والأطفال ، وعن زيادة الاهتمام بالثروة والممتلكات المادية والمركز .. وتناقش مأساة السود فى « "Created Equal" » الـــــذى ينتهى هكذا : « لن نتغلب على محنة العبيد الى أن يحين الوقت الذى لا نستطيع فيه أن نتذكر اذا كان الرجل الذى تحدثنا معه لتونا فى الشــــارع زنجيا أو أبيض » . وهناك مقالات أخرى تناقش الوســـائل التى فشلت بواسطتها البلاد وشعبها الالتزام بالأحـــــلام والمثل العليا التقليدية .

ويبين هذا الكتاب مثل Travels with Charley ايمـــان الكاتب الراسخ فى الأمريكيين ومعرفته بمواطن ضعفهم وقوتهم . كما أن المعتقدات المثالية التى تعتبر مقياسا فى معظم القصص ومنها The Winter of Our Discontent المتشائم تظهر فى صورة مصغرة فى كل المجلد وتوازن التقييمات المتشائمة . ويجد شتاينبك أشياء

كثيرة تستحق الثناء والشكر فى الشخصية الأمريكية والانجازات الأمريكية . وينتهى المقال الأخير كما يلى : « ان تجربتنا فى أمريكا أهلتنا للتغيير القادم .. اننا لم نبق أبدا ساكنين مدة طويلة .. اننا لم تقنع أبدا بمكان أو مبنى أو بأنفسنا » .

ورغم أن America and Americans يزخر بالأساطير والرموز الوطنية وخاصة السياسية والأخلاقية ، الا أنه ليس عملا يعتبر فيه الاستعمال الأدبى للأسطورة أو الرمز أو اللغة التشبيهية أو دراسة الشخصية محور الاهتمام الرئيسى للكاتب . وكما يحدث فى Travels with Charley تتضح المهارات القصصية فى التقارير عن الناس مثل المرأة فى نيويورك التى كانت تظهر يوميا فى صيف ما على الرصيف ومعها مائدة وكرسى وشمسية شاطىء ، وتسترخى وتستمتع بالمنظر . وفى الفقرات الروائية مثل التعليق على الرؤساء الأمريكيين أو على البيوت النموذجية .. وتتخذ المقالات بموضوعات متصلة بها وبالنبرة والطريقة المألوفة لكاتب نابه يكشف فى كتابته عن البلاد شيئا من مواطن ضعفه وقوته هو نفسه .. والكتاب يفتقر الى روعة أفضل كتبه ، كما أنه سطحى فى بعض الأجزاء ، ويترك الكثير دون أن يذكره بسبب المجال .. ولكن الآراء عموما معروضة بطريقة جيدة ومقدمة بثقة ومدعمة بأمثلة أختيرت بدقة من سنوات كثيرة من الملاحظة الدقيقة المتعاطفة .. ويعتبر هذا العمل الأخير لجون شتاينبك شهادة ملائمة على حب انسان لبلاده وأماله المشكوك فى تحقيقها .



خاتمـــــة

ربما يجد المؤرخون الأدباء صعوبة فى تحديد مـــكان جون شتاينبك وعمله لأنه لا الرجل ولا العمل ينتمى الى نزعة أو فريق معين على نحو مقنع • لقد تطور ككاتب فى حوالى نفس الوقت الذى ظهر فيه فتزجيرالد ودوس باسوس وفولكنر وهيبمخواى ـ وقد ولدوا جميعا فى بداية القرن تقريبا ـ الا أنه يبدو منفصلا عنهم فى عدة نواح • ذلك أن شتاينبك على عكس هؤلاء الكتاب لم يتأثر بقـــوة بالحرب العالمية الأولى ، كما أنه على عكسهم وعكس غيرهم لم يكن من بين الذين غادروا أوطانهم وكتبوا من باريس فى العشرينات عن مشاكل الأمريكيين فى أوربا وفى بلادهم •

لقد اعتبر شتاينبك وكتاب مثل جون دوس باسوس وجيمس ت• فاريل كاتبا اجتماعيا معارضا فى الثلاثينات ، كما أن قصصه In Dubious Battle و Of Mice and Men و The Grapes of Wrath تنتقد بعنف الظلم الاقتصادى ومحنة المعدمين بوجه خاص • ومع ذلك يندر أن تظهر فى قصصه العلامات المميزة للقصص الساخطة على المجتمع ، وهذه العلامات هى الرســـالة الثورية والشخصيات والأفعال الموضوعية للتعبير عن تلك الرسالة •• لقد وصفت قصص شتاينبك فى الثلاثينات كما وصفت أعمال أخرى كتبها بأنها واقعية أو طبيعية وهى أوصاف مألوفة للنزعات أو الفرق الأدبية التى كانت سائدة فى تلك السنوات ، على أن قصص شتاينبك لا تناسب مثل هذه الأنواع • ففى قصته The Grapes of Wrath تزخر الواقعية بلغة شاعرية واهتمامات بالنواحى الغامضة للحياة البيولوجية •• فى حين أن التركيزات الطبيعية التى تبدو أحيانا فى مثـــل عنف تركيزات دوس باسوس تخففها فى تلك الرواية وفى

Of Mice and Men روح الدعابة ومشاعر الشفقة الواقعية ..
ربما يعتبر الرجل وعمله غريبا - ولعل هذا هو أنسب الأوصاف -
حتى نتذكر الأعمال القصصية وغير القصصية المختلفة التى ليست
غريبة وحتى نتذكر قصصا اخرى مثـــل Tortilla Flat و
Cannery Row التى تبدو غريبة ، ولكنها لا تتناول الاهتمامات
الرئيسية مثل الفضاء والأرض والطبيعة ومكان الانسان فيها .

. . .

قد تفهم طبيعة واتجاه قصص شتاينبك بطريقة أوضح اذا درست
من خلال الموضوعات والرموز التى تتميز بها مثل صورة البركة
الجزرية التى ذكرها فونتنروز . كما أن الأسرة تعتبر رمزا هاما
اخر وغالبا ما تكون فى مركز القوى الدرامية للقصة أو الرواية
وتصور مواطن الضعف والقوة .. ان أخطار الطبيعة والمجتمع
تشتت أسرة توريز فى « "Flight" » . كما أن مؤامرات منرو تشرد
أسرا عديدة فى The Pastures of Heaven . فى حين أن العنف
والشذوذ والانحراف يصور ضعف الانسان والأسرة وذلك فى مصائر
أسرة باتل وأسرة فان ديفنتر وأسرة مالتبى فى تلك الرواية وأسرة
نولان فى In Dubious Battle . فنجد أن أفراد أسرة جود فى
Grapes of Wrath يبقون على قيد الحياة بعد الاضطرابات
الاقتصادية والطبيعية ، ولكنهم يجب أن يدركوا فى النهاية ظهور
أسرة أكبر .. وتوجد أسر مستقرة فى القصص الى جانب أسرة
جود وأسرة ولسون وأسرة وين رايت فى The Grapes of Wrath
وأسرة وايتسايد فى The Pastures of Heaven وأسرة هاملتون فى
East of Eden الذين يجدون قيمة ضئيلة فى أرض المزرعة ويجدون
القوة فى داخل أنفسهم . كما توجد أسر قليلة قانعة مثل أسرة تفلن
فـــى The Red Pony وأسرة كينو حتى يصبح الأب طموحا
أكثر مما يجب فى The Pearl .

وتعتبر الأرض والسخط الاجتماعي سمتين أخريتين تميزان القصص صحيح أن وسط كاليفورنيا ـ وأهم مواقعها مونتيري وعدة وديان ـ والمنطقة الغربية من ساليسو وأوكلاهوما قد تبدو للقراء مألوفة أقل من مزارع فولكنر في Yoknapatwapha • الا أن طريقة معالجة شتاينبك للأرض رائعة رغم ذلك بفضل تصويره البيانى الدقيق للبيئة وآثار الطبيعة على الانسان وبفضل الدراسة السابقة البديعة لمتاعب المزارع الصغير والعامل المهاجر عندما يواجهان الانحياز القوى بين المزارعين الكبار والتمويل الضخم ، وقد ظلت هذه المواجهة قائمة حتى السبعينات •

ان الاحتجاج الاجتماعي وهو شيء أساسي وهام في كثير من قصص شتاينبك يبدو واضحا فى الواقعية الساخرة لقصة The Wayward Bus وبصورة مرنة أكثر فى The Winter of Our Discontent كما يظهر أيضا فى قصص الثلاثينات التي تتسم بطبيعة أكثر صلابة :

ان رؤية شتاينبك الأخلاقية التى تعرضت للوصف والتفسير والاطراء والتساؤل بطرائق مختلفة على مر السنين :• هذه الرؤية تساعد كثيرا فى صياغة مثل هذه العناصر وفى صياغة القصص نفسها • وتبدو بوضوح شفقة شتاينبك على الناس السائدة فى كتبه فى صور الضعفاء مثل الشخص الســاذج والمعوق والمحروم من حقوقه ـ أسرة مالتبى ودانى والعمال المهاجرين وجورج ولينى ـ الذين لا يجدون الأرض الموعودة أو على الأقل لا يجدونها كما يحلمون بها • كما يبدو التسامح والتعاطف واضحا أيضا فى ورطة اليزا المعقدة ودوك فى Cannery Row وجون شيكوى وآدم تراسك •

على أن الصفة المؤكدة الأساسية للرؤية تميل الى أن تقلل من

قيمة التعقيدات وعلامات الحياة العصرية وخاصيـة في القيم أو الخيارات الأخلاقية من ناحية ، كما تميل الى أن تكشف عن صفات وأفكار الفريق أكثر مما تكشف عن قلب وذهن الفرد من ناحيـــة أخرى . هذا مع الاحتفاظ بالعناصر الحدسية والمثالية القوية فى الرؤيـــة .

ان الشخصيات الكبرى مثل دانى وجيم فولان وتوم جود وسام هاملتون الذين يندر فحص مشاعرهم ودوافعهم بعمق ســيكلوجي يفقدون الواقعية عندما تقترب القصة من نهايتها ، ويصـــبحون بالتدريج تجسيما غامضا لآراء اجتماعية واقتصادية .

ولا شك أن المهارة والحنكة الأدبية التى تقدم بها الموضوعات والرموز والرؤية الأخلاقية تميز معظم قصص شتاينبك ، وتضمن وضعه الى جانب أفضل كتاب جيله . فقد اشترك معهم فى الإلتزام المستمر والتفانى لاتقان فن القصة . وتتميز 'The Chrysanthemums' و "The Flight", 'Of Mice and Men" بالدقة والوضوع واللغة الحساسية ، كما تتميز باعتدال وتناسب الصيغة . كما تصـــور الشخصيات فى هذه القصص وفى أعمال أخرى تنوعا فى الصياغة من جودى تفلن الواقعى الدقيق ، الى الشخصيات الرمزية المتنوعة فى القصص ، الى الواقعية الرمزية لماما جود رجوان شيكوى ، الى الراوى المعقد والفاحص ايثان اللن هولى . لقـــد خبر شتاينبك ملابسات الحوار وأسلوب النثر ونوع وجهات النظر بطريقة لا تقل روعة أحيانا عن فيتز جيرالد وهيمنجواى . ولعله وصل الى مستوى فولكنر فى تنوع الأعمال ان لم يكن فى الثراء .. ذلك أنه لم يؤلف روايات وقصصا فقط ، ولكنه خلق أيضا قصصا أخلاقية ومسرحيات وقصصا مسرحية وتقارير غير قصصية ومن هذا النـــوع الأخير Sea of Cortez الذى كتبه مع إد ريكيتس .

ان آراء شتاينبك نفسه عن الكتابة وعن مبادئه وأهدافه ككاتب يمكن أن تساعد على توضيح الرجل وعمله • ففى خطابه الذى ألقاه بمناسبة حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ يعلق شتاينبك بأسهاب على ما يصفه « بالمسئوليات والواجبات الكبرى لصناع الأدب » • وبعد أن يقبل شتاينبك الجائزة بتواضع ولكن أيضا بثقة وكبرياء يوضح أن الأدب لا يكتبه القلة للقلة ، كما لا يقصد منه تأمل تلك الفكرة المسيطرة المسماة « بالخوف العالمى •• لقد خلق الأدب على مر العصور على أيدى الكتاب » الذين ليسوا « منفصلين ولا مبتعدين » والذين يحاولون جهدهم تعميق الفهم وتحطيم مخاوف القلب والروح :

« وهذا ليس جديدا •• ان مهمة الكاتب القديمة لم تتغير •• انه مكلف بعرض عيوبنا وأخطاءنا الكثيرة •• مكلف بجر أحلامنا القاتمة الخطيرة الى الضوء بغرض التطهير والتحسين •• أضف الى ذلك أن الكاتب مكلف بالاعلان عن طاقة الانسان والاشادة بقدرته من حيث عظمة القلب والروح والمروءة فى الهزيمة •• من حيث الشجاعة والرحمة والحب •• •• ففى الحرب التى لا تنتهى ضد الضعف واليأس تكون هذه الأشياء بمثابة الرايات المضيئة للأمل والتفوق •

أعتقد أن الكاتب الذى لا يؤمن بقوة بكمال الانسان لا تكون له رسالة مقدسة أو أية عضوية فى الأدب » •

ان أفضل أعمال شتاينبك تعرض بطريقة رائعة « الأخطاء والعيوب » الخطيرة للجنس البشرى ، كما تنبهنا الى الأخطار الاجتماعية والاقتصادية ، وتذكرنا بالتزاماتنا وأحلامنا التى نسيناها ، وتظهر أقوى معتقدات ومشاعر شتاينبك فى ايمانه الجوهرى بالبشرية ، وفى توقعه أن الانسان سوف يبقى ويصمد وأن القوى الخلاقة للروح البشرية سوف تسود •

رقم الايداع ٤٣٨١ / ٨٢
الدولى ٨ ـ ٠٠٤٨ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧

هذا الكتاب :

يتضمن هذا الكتاب نقدا مستفيضا وشائقا لأعمال جون شتاينبك كتبه بأسلوب رائع بول ماكرثى أستاذ اللغة الانجليزية بجامعة ولاية كانساس الذى تناولت كتاباته فى الأدب الأمريكى العمالقة ميلفيل وهوثورن وهمنجواى ٠

يستعرض بول ماكارثى فى هذا العمل قصة حياة شتاينبك الذى منح جائزة نوبل فى الأدب فى عام ١٩٦٢ وكان قد وضع علامته المميزة فى الأدب الأمريكى منذ فترة طويلة ٠ ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب سيثير اهتمام القارىء الذى يقوم بدراسات فى الأدب المقارن والأدب الأمريكى بصفة عامة ٠

ان معظم أعمال شتاينبك تكشف عن علامات الجودة المميزة لهذا الكاتب وهى المهارة الفنية الحساسة والاستيعاب الحاذق للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والايمان الراسخ بالجنس البشرى والتعاطف مع المقهورين ٠

والواقع أن مؤلفات شتاينبك فى الثلاثينات والأربعينات تمثل السمات الرائعة لعمل فكرى يغطى ثلث القرن العشرين – من ١٩٢٩ الى ١٩٦٦ ٠

